البلاغة الميسرة

د. عبد العزيز بن علي الحربي
أستاذ القراءات والتفسير المشارك
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار ابن حزم

البلاغة الميسرة

د. عبد العزيز بن علي الحربي
أستاذ القراءات والتفسير المشارك
بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة لسان العرب

الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

9 789953 819464

ISBN 978-9953-81-946-4

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم

بيروت - لبنان - ص.ب : 14/6366
هاتف وفاكس : 701974 - 300227 (009611)
البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb
الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

مقدمة الطبعة الثانية

أقدِّم لطلبة العلم وأخدان البلاغة كتاب «البلاغة الميسرة»، في طبعته الثانية بعد عام واحد من طبعته الأولى، ولم يبلغني شيءٌ عنه سوى الثناء وقول طائفة منهم: لو مدَدَت بساطَه، وزدته تفصيلاً لكان أجودَ. ومع شكري للمادح، وتجاوزي عن القادح، فإني أودّ أن أقول كلمة فيها بيان لما فعلته، وإرشادٌ للطالب.

إنّ البلاغة معانيها وبيانها مركوزة في نفسك مستقرة عندك بالقوّة والفعل، فالرّحمن جلّ جلالُه ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾، وما هذه المقدمات البلاغية إلاّ تعريفٌ بمصطلحاتها، وشرحٌ لمقدماتها، وما وضعه المصنّفون من قواعِد وتقسيمات، تنبيهًا لملكتك، وإيقاظًا لموهبتك، فهذا العلم كلما أوغلت في دراسته دراسةَ تحصيلٍ وتقصٍّ لتقاسيمه، ونظرٍ في دقائق المصنّفين وآرائهم واختلافاتهم، كان ذلك عبئًا على ذوقك، وتقييدًا لملكتك، وذهب همُّك عن الاشتغال بجمال البيان إلى أمر آخر خارج عن مقصود البلاغة، وانظر إلى أساطين البيان من مصاقع الخطباء، وأساطين الكُتّاب، وبلغاء الشعراء بعد عصور التصنيف إلى اليوم، لا تكاد تجد واحدًا منهم برّز في بيانه بسبب تعمقه في البلاغة، وتقصيه لقواعدها، وحذقه لكل مفرداتها، وستجد أن المتعمقين لم يزدهم البحث في خبايا مسائلها، وإجراء استعاراتها إلاّ عِيًّا وتقصيرًا في البيان، ماذا أبقيتَ لعقلك وذوقك إذا صددتهما عن الاستمتاع بحلاوة العبارة، وجلال البيان،

وصرفتهما إلى التدبر في الشروط والأركان، والرّدود والاعتراضات، وتتبع الخلافات.. إنّ هذا الكتاب وأمثاله يجعلك كمن تعلم الرّماية أو السباحة أو ركوب الخيل، أو قيادة السائرة أو الطائرة، يعلمه من يعلمه أصولَها، والمهارة بعد ذلك على المتعلم. والله الموفّق.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على نبينا محمد وآله

المقدمة

- ١ -

كم من مشتغلٍ بالبلاغة وقد فاتتْهُ البلاغة في لفظها ومعناها؛ كما اشتغل بعض شُرّاح التلخيص، فكتبوا هنالك مطوّلاتٍ حَشَوْها بالتقسيمات والتفريعات، والاعتراضات، والردود بأسلوب أهل الكلام والجَدَل؛ يحسبها المطّلع إذا قرأها مصنَّفاتٍ في علم المنطق والكلام، لما فيها من الحشْوِ والتعقيد، والاستطراد البعيد، كأنّما هي جسدٌ شاحب، لا روح فيه ولا ماء.

وما مَثَلُ البلاغة في هاتيك الأسفار الطّوال إلا مَثَلُ حسناء امتُهِنتْ حتى ذهبت محاسنها، وابتذلت في الجهد والعمل حتى فقدت زينتَها، وكُلِّفتْ بصنعةٍ لا تُحسنها ولا تطيقُها؛ ذلك بأن البلاغةَ ذوقٌ محفوفٌ بالطبع، فإنْ مهر فيها أحدٌ بغير الطبع المجرّد فما مهر فيها إلا بتطبُّعِه[1]، وسعيه إلى تحقيق هذا الأصلِ بالصناعة والبراعة. والاكتساب ممكن في كل

(١) التطبُّع: تنمية الطبع، ورَدّ الطباع التي خرجت منه إليه.

فن من فنون العلم، وما من تطبُّعٍ إلا وله أصل في الطبع قلّ أو كثر، فإنّ كلَّ مَنْ له عينٌ تطرِف فيهِ نزعةُ هوًى، وحُبٌّ، وإعجابٌ. . .

❋ ❋ ❋

- ٢ -

والبلاغةُ مصاحِبةٌ للغة العربية، ولكلِّ لغةٍ منذ أن كانت اللغات، ومنذ أن علَّم الرحمنُ البيانَ. وكلُّ ذي ذوق سليم تهتزُّ نفسُه وتتحرَّكُ مشاعره حين تقرأُ أو تسمع كلَّ كلام مؤثِّرٍ. ولم يزل الناس يتمادحون بالفصاحةِ وصائبِ القول، وحَسَنِه. وكان للعرب في ذلك ميادينُ للمفاخرة والممادحة بالبيان، وجيِّدِ الكلام شعرًا ونثرًا.

ونزل القرآنُ والبيانُ هو أولُ ما تتنافس فيه الشعراء الفحول، ويتبارى فيه الخطباء المصاقع؛ الذين قال الشاعر فيهم:

يـرمـون بـالـخـطـب الـطـوالِ وتـارةً
وحـي الـمـلاحـظِ خِـيـفَـة الـرقـبـاءِ

وللجاحظ وغيرِه أخبارٌ سيَّارة، عن عماليق الفصاحة، وأساطين البيان. فهذا سحبان يخطب مرّةً بين يدي معاوية من الضحى إلى الظهيرة، فما تلكّأ، ولا تلعثَم، ولا تنحنحَ. ولما حضرت الصلاة قال له معاويةُ: الصلاةَ الصلاةَ، قال: وهل نحن إلا في تسبيحٍ وتحميدٍ وتمجيدٍ وتعظيم وتقديسٍ. . . وذكر من ذلك شيئًا كثيرًا، فقال له معاوية: أنتَ أخْطبُ العرب. قال: بل أخطبُ الإنسِ والجنِّ.

وكان واصلُ بن عطاء الغزّال، وهو أحد أئمة الاعتزال، ممّن عُرِفَ بالفصاحة وشهر بالبديهة، غير أنه كان ألثغ في «الراء» فكان يجتنب الراء في كلامه، ويضع الكلمة مكان الكلمة التي فيها راء، فيجعل مكان «**الأرض**» و«**القريب**» و«**البر**» و«**الحمار**» و«**السراب**» و«**المطر**»: **البسيطة**، **والداني**، **والقمح**، **وأبا زياد**، **والآل**، **والغيث**، وفي ذلك يقول الشاعر:

ويـبـدل الـبـرَّ قـمـحًـا فـي تـصـرّفِـه
وغـيَّـر الـراء حـتـى احـتـال فـي الـشَّـعَـر
ولـم يُـطِـقْ مـطـرًا والـقـولُ يُـعـجِـلُـه
فـعـاذَ بـالـغـيـث إشـفـاقًـا مـن الـمـطَـرِ

ومرّ يومًا بأناسٍ فأرادوا أن يتضاحكوا من لَثغتِه، فقالوا له: كيف تقول: جرَّ رُمحَهُ، وركِب فرسَه، وأمر الأميرُ بحفر بئر على قارعة الطريق؟ فقالَ مِن فَورِهِ: سَحَب ذَابِلَه، وامتطى جوادَه، وأوجب الخليفة نَقْبَ قَلِيبٍ على الجادّة.

واللغةُ العربية وخزائنُها الملأى هي التي هيّأت له هذا التصرُّفَ، ووسيلته في ذلك ذكاؤه، وممارستُه للأساليب، وحذقُه لمفردات اللغة.

❊ ❊ ❊

- ٣ -

ليت طلابَنا يعلمون ما يحمله لهم هذا العِلم من ذكاءٍ وزكاءٍ، وأدبٍ وجمالٍ، وحلاوةٍ وطلاوةٍ!! لو علموا ذلك لقدّروه حقّ قدْرِه، ولعَشِقُوه عِشقًا، ولخَلَعَ عليهم من لباس الجمال والجلال ما يكونون به مثلاً. ولكان لهم شأن آخر، ولما اتخذوا هذا القرآن مهجورًا.

لو فطن إلى ذلك طَلبةُ العلم في المحاضر، والواعظون على المنابر، وعرفوا رُكن البلاغة الذي تقوم عليه أرجاؤه لما سَمِعْتَ كثيرًا ممن يخطبون على أعواد المنابر، منابرِ الجمعة وغيرها، خُطَبًا لم يحملوا هَمَّ معناها، ولا اعتنوا بسلامة مبناها. ولَمَا عَمد واحدٌ منهم إلى ورقة ينتزعها من كتاب أو من حاسوب، ثم يلقيها على أسماع الناس يتلوها عليهم، ثم ينزل لم يعش همَّها، ولم يحتدِمْ خاطرُه لها. ولَمَا رأيتَهم يخوضون في أمور لا يصلح لها مثل ذلك المقام، ويحسُن فيها ذلك الكلام.

إنّ عظَمة هذا العلم في كشْفه عن فصاحة القرآن وبلاغته، ووجوهِ إعجازه، وبلاغةِ مَن أوتي جوامع الكلم، وعن أساليبِ الشعراء وأربابِ البيان، ورفيع الكلام ورقيعِه، وجيّدِه ووضيعِه. وحسبك بهذا شرفًا!

❊ ❊ ❊

ـ ٤ ـ

وليعلمْ طالب العلم أنّ علومِ اللغة ـ والبلاغةُ بَضْعةٌ منها ـ هي أحد جناحين يحلّق بهما في فهْم الكتابِ الذي أنزله الله بلسان عربيٍّ مبينٍ، وفهْمِ كلام النبيّ ﷺ. والجناح الآخر هو العقل؛ فإذا اجتمع العقل الصريح مع الفهم الصحيح لنصوص الوحي صار حالُه قريبًا من حال العرب الذين كانوا يسمعون نصوصَ القرآن وكلامَ النبيّ ﷺ مباشرةً. ونعني بعلوم اللغة: ما يتعلّقُ بإعرابِها، وتراكيبِها، ودلالة ألفاظها. . . فكم من مسألة وقع فيها النزاعُ، وخطل الرأي بسبب الجهل بمعنى اللفظ ودلالته!! وقد أثبتُّ في ذلك عشرات المسائل كان الخطأ فيها بسبب ضعف التأمُّل في الوجه اللغوي والإعرابي للكلمة في مصنف خاصٍّ. ولهذا قال بعض البلغاء: لا يكون البليغ بليغًا حتى يكون معنى كلامِه أسبق إلى فهمِك مِن لفظِه إلى سمعِك. وتأمّل ذلك تجدْه عيانًا حتى في كلام العوام، الذين أُوتوا من الحكمة في الخطابِ وحسن القول وإصابته ما لم يُؤْتَهُ بعضُ أدعياء البيان، الذين يحسنون رَصْفَ الكلام؛ يتكلَّمُ الواحد منهم كلامًا يذهب فيه ويجيءُ، ويصعدُ وينزلُ، ولا يصل إلى جوهر الموضوع إلا بعد أن ينسيكَ أول الكلام.

إنهم ذهلوا عن معنى كبيرٍ، وهو مقصود البلاغة وغايتها؛ بل هو البلاغة كلها: ألا إنّ البلاغة إصابةُ القول والهدف. وهو ما يعبر عنه أهل المعاني بقولهم: البلاغةُ مراعاةُ مقتضى الحالِ. ويُعبَّر عنها في الحِكم بقولهم: لكل مقام مقالٌ، ولكل حَادِثٍ حَدِيثٌ. غير أن المقامات منها ما هو ظاهرٌ يُدركُه كلُّ أحدٍ؛ كزمان الحج، وزمان الصوم من شهر رمضان. يُدرِكُ

المصلّون أن كلام الخطيب سيكون في ذلك أو فيما يتعلّق به. ومنها ما هو باطن لا يهتدي إليه إلا أولو الألباب.

والمقاماتُ هاهنا متفاوتةٌ، وقد تغيب عنها فِطنة بعض الفُطناء؛ لِدِقَّتِها. ومردّ ذلك إلى إحساسِ المتكلم وإدراكِه لحال المخاطَبِ ومَنْ معَهُ. فالكلام في حال زيارة المريض لا تَحْسُن فيه الإطالة، كما لا يحسُن فيه ذِكْر الموت، ولا إيرادُ الأخبار عن الذين هلكوا بسبب المرض الذي ابتُلِي به المَزُور. والمقامُ الذي لا متّسَع فيه للوقت؛ لكثرة الزحام، وانشغال المخاطب، مثلاً، لا يحسُن فيه الإطنابُ، كما لا يَحْسُن الإيجازُ في مقام المدح، ولا في مقام النسيبِ والاعتذارِ؛ إلاّ لأمرٍ يقتضي ذلك. وكلُّ مَن أخطأَ هدفَه من كلامَه ولو كان جَيِّدَ اللفظ، قويَّ السّبكِ، فإنّه مجانب للبلاغةِ في ميزان أهل البيان؛ لأن صاحبه لم يقل القولَ المناسب في الحال المناسب. والذي يقع في ذلك هو من يجهل أقدارَ مرامي الكلام ومعانيه، ولم يوازِنْ بينها وبين أقدارِ المخاطَبين، والحال الذي هو وهم فيه.

❊ ❊ ❊

ـ ٥ ـ

قرأتُ علم البلاغة في كتب كثيرة، منظومة ومنثورة، مختصرة ومطوّلة؛ ككتاب «مفتاح العلوم» للسكاكي، و«دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» للجرجاني، وشروح «التلخيص» وكثيرٍ من كتب المتأخرين. وحفظت منها كتاب «التلخيص» للقزويني، كاملاً، ونظْمَ الجوهر المكنون للأخضري، وقرأت شروحَها، وانتفعتُ بذلك، وبما أفادنيه من قرأتُ عليه هذين المتْنَيْن من أهل العلم. غير أنّ الفائدة الكبرى كانت من تذوقي لكلام الله وكلام رسوله، ومنظوم كلام البلغاء، ومنثوره. وكان ما حذقْتُه من قواعدَ وتعريفاتٍ وتقسيماتٍ تطبيقًا على ما أقرأ وألَتَذُّ بِهِ من تلك الأساليب، ذات الفخامة والعذوبة والبراعة.

لهذا أنصح طالب العلم أن يكتفي بضبط المعالم التي تحفظ له المصطلحات والضوابط، والتعريفات والمُثُل التي يحتاج إليها؛ حتى لا يكون جاهلًا بقواعده، وليكون على ثقةٍ بعلمه ومعرفته. فالبلاغة ذوق يُصقَل بالتأمُّل في أساليب القرآنِ وكلامِ البلغاء. والطبعُ وحدَه لا يكفي.

❋ ❋ ❋

- ٦ -

وهذا الكتاب الموجزةُ مسائلُه، المفصَّلةُ قواعدُه، أقدِّمه لطالب العلم؛ ليكون كافيًا له في معرفة البلاغة وقواعدها، ولينطلقَ بعد ذلك بذهنه ومَلَكَتِه كما يشاء. فعلم البلاغة لا ينتهي عند حدٍّ، وهو قابل للأطوار والزيادة إلى أن تقوم الساعة؛ العبرة فيه بالجمالِ، والصورةِ والبديعة، والإنشاءِ البارعِ. فهو ليس كعلم النحو، له قوانين مجموعةٌ لا تُجيز للمتكلم أن يخرج فيها عن سَنَن المتقدمين في عصور الاستشهاد، ولا أن يزيدَ شيئًا لم يذكرْهُ السابقون.

ذلك بأن الكلام الإعرابي لا يتفاوتُ. فقولك: إنّ الدّنيا حلوة، كقولك: إنّ الدنيا مُرّةٌ. كلاهما مبتدأٌ وخبرٌ، دخل عليهما «إنَّ».

أمّا البلاغةُ ففصاحة في اللسان، وذوقٌ في الوجدان، ومتعةٌ في الأذهان، ولكنّ الذي يجمعُ ذلك وينتفع به هو من كان له قلبٌ حاضرٌ، وذهنٌ يقظٌ، وأدبٌ جَمٌّ، وذوقٌ رفيعٌ.

والــذي نــفــسُــه بــغــيــر جــمــالٍ
لا يــرى فــي الــوجــودِ شــيــئًــا جــمــيــلًا

أبو محمد
عبدالعزيز بن علي الحربي
مكة المكرمة
١٤٣٠/٩/١هـ

الكلمة الفصيحة والمتكلم الفصيح

إذا سَلِمتِ اللَّفظةُ المفردةُ من التَّنافرِ في الحروفِ ومن الغَرابةِ الشديدةِ في المعنىٰ، وسَلِمت من المخالفةِ لقوانين الصَّرف، فهي لفظةٌ فصيحةٌ، والمتكلّم القادر على أداء ذلك متكلِّمٌ فصيحٌ.

الإيضاح:

الفصاحة؛ هي: الظهورُ، والبيان. يقال: أفصحَ الصُّبحُ: إذا أضاء.

والفصاحة في اصطلاح البلاغيّين: وضوحُ اللّفظ، مع السلامة من العيوب؛ **ومن ذلك**: تنافُر الحروف، كما في: «هُعْخُع» في قول بعض الأعراب: تركتُ ناقتي تَرعى الهُعْخُع[1].

ومنها: أن يسلم من الغرابة في الاستعمال؛ كقول رؤبة بن العجّاج:

وفــاحِــمًــا[2] ومَــرْسِــنًــا[3] مــســرَّجــا

(١) نبات ترعاه الإبل، والمقصود بتنافر الحروف: تزاحمها؛ حتى أن كل واحد منها يريد أن ينفر من مكانه.

(٢) أراد: الشَّعَر.

(٣) أراد: الأنف.

فلفظة «مسرّجا» خفي معناها المقصود على حذّاق اللغة، لا يُدرَى: هل أراد الشاعر: تشبيهَ الأنف في الدقة والاستواء بالسيف السّريجي، أم أراد أنه كالسِّراج في البريق واللمعان. وكقول أبي الهَمَيْسَع:

مِـن طَـمـحـةٍ[١] صـبـيـرُهـا[٢] جَـحْـلـنـجَـع

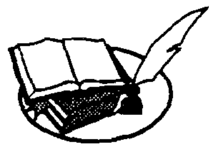
قال صاحب القاموس: «ذكروه [أي: جحْلنجَع] ولم يفسروه، وقالوا: كان أبو الهميسع من أعراب مَدْيَن، وما كنا نكاد نفهمُ كلامَه». والمسألة مع ذلك نسبيّةٌ، فقد تكون الكلمةُ موغِلَةً في الغرابة عند قوم، غيرَ غريبة عند آخرين.

ومنها: مخالفة القياس الصرفيّ: كقول أبي النجم:

الـحـمـد لله الـعـلـيِّ الأجْـلَـلِ

والقياس: أن يقول: الأجَلّ.

ومثاله في كلام الناس اليوم: جمعهم «مدير» على «مدراء»، القياس جمعه على «مديرين»، فهذه الكلمة وأمثالها إذا وردت في كلام قلنا عنها: كلمة غير فصيحة.



(١) الطمحة: المكان المرتفع.
(٢) الصبير: السحاب.

الكلام الفصيح

إذا سَلِم الكلامُ من: التنافُر في ألفاظه، ومن الضَّعف النحويّ، ومن التعقيدِ في اللَّفظِ أو في المعنىٰ فهو: كلامٌ فصيحٌ.

الإيضاح:

كان الكلام فيما مضى عن الفصاحة في الكلمة الواحدة، وأما الكلام الفصيح فهو: الخالي من التنافر في كلماته. وذلك يكون بتقارُب مخارج الحروف؛ لأن النُّطق بالحروف المتقاربة في مخارجها يشبه مَشْي المقيَّد[1]، ومن أشهر أمثلته قول الشاعر:

وقــبــرُ حــربٍ بــمــكــان قــفــرُ
ولــيــس قُــربَ قَــبْــرِ حــربٍ قــبــرُ

والكلام الفصيح أيضًا؛ هو: الخالي من الضَّعْفِ. والمراد به: ضعْفُ التركيب بسبب ضعْف الوجه النحوي؛ نحو: ضَربَ غلامُه زيدًا. فإن الأصل هو عود الضمير على ما تقدّم لفظه لا على ما تأخر، والضمير في «غلامُه» يعود على «زيدًا» وهو متأخر. وله وجه ضعيف في النحو.

(١) المقيَّد إذا مشى تتقارب خطاه ويتعثر في مشيته.

قال ابن مالك:

وشــــاع نــــحــــو خــــافَ ربَّــــه عُــــمَــــرْ
وشــــذَّ نــــحــــو زانَ نــــورُه الــــشَّــــجَــــرْ

والكلام الفصيح أيضًا؛ هو: الخالي من التعقيد في اللفظ، أو المعنى.

ومثال الأول: قول بعض الملغزين في الفرائض:

رجــــلٌ مــــات وخــــلَّــــى رجــــلاً
ابــــنَ عــــمِّ ابــــنِ أخــــي عــــمِّ أبــــيــــهِ

المراد: ابن عمّه، ولكنه أطال ولبّس، فصار الكلام معقَّدًا.

ومثال الثاني ـ وهو التعقيد في المعنى ـ: قولُ العباس بن الأحنف:

سـأطـلـبُ بُـعـدَ الـدّار عـنـكـمْ لـتـقـرُبـوا
وتـسـكُـبُ عـيـنـايَ الـدمـوع لـتـجـمـدَا

فقد أراد بقوله:

وتـسـكـب عـيـنـايَ الـدمـوع لـتـجـمُـدا

الكنايةَ عن السرور؛ لأن جمود العين هو عدم البكاء، ولكن الذي أفسد هذا المعنى أنه عبَّر عن ذلك بعد التعبير عن سكب الدموع؛ فإن العين إذا سكبتِ الدموعَ حتى جمدت، لا يكون ذلك عن سرور، ولكنه عن بخلٍ بدموعها، وجفافِ مائها، وليس ما قصده من السرور، كما قال الشاعر:

ألا إنَّ عـيـنًـا لـم تـجُـدْ يـومَ واسـطٍ
عـلـيـك بـجـاري دمـعـهـا لَـجَـمـودُ

وهذا هو الكلام الفصيحُ...

أما المتكلِّم الفصيح فهو: القادر على الإتيان بكلام فصيح.

فمن كان في كلامه تعقيدٌ، أو خللٌ في التركيب، وضعْف في التأليف، ولحنٌ في الكلام، أو تنافر فيه؛ فليس فصيحًا في اصطلاح البلاغيين.

الكلامُ البليغُ والمتكلّم به

الكلام البليغُ؛ هو: الذي يناسبُ الحالَ، والمقامَ.
والمتكلمُ البليغُ؛ هو: القادرُ على التعبير عن المرادِ بكلام بليغٍ.
والحَكم في ذلك كلّه هو الذوقُ السليمُ، وقوانينُ العربيّة.

الإيضاح:

الكلام إذا لم يكن مناسِبًا للمقام لا يكون كلامًا بليغًا، ولا المتكلِّمُ به بليغًا. وهذا أمرٌ يعرفه كلُّ ذي حِسٍّ سليمٍ؛ غير أن الناس يتفاوتون في مراعاته.

فمثلًا: إذا كان الحالُ يطلب الإيجاز، وتكلم بكلام طويل في الذروة من الفصاحة؛ لا يقالُ له: بليغٌ. ولا عن كلامه: بلّيغ. لأنه لم يُراعِ المقام. وهكذا مقامُ المدح يختلف عن مقام الهجاء، وخطابُ الصغار ليس كخطابِ الكبار؛ ولهذا كان مِن حِذْق الدّاعي إلى الله أن يعلَمَ قبل أن يتكلمَ حالَ مَن يخاطبهم؛ من حيثُ استعدادُ عقولِهم وأنفسهم، وما يسمحُ به وقتهم.

وقد يبعُد المتكلم عن البلاغة كلَّ البُعد حتى يوصف بالضعف في تقديره وتدبيره؛ كأن يحدّث بالعربية مَن لا يعرفها. وقد قالوا قديمًا: لكلّ حادثٍ حديثٌ. كما قالوا: لكلِّ مقام مقالٌ. والذوق السليم له الحكم الفاصل في ذلك. وقد اتفقت الأذواقُ السّليمة على أنّ مقام التعزية ـ مثلاً ـ، والتحذير، والعتاب مقامُ إيجازٍ. وأن مقامَ محادثة المحبوب، والصّلحِ، والتهنئةِ، والقصص مقامُ إطنابٍ[1].

وخلاصة المعنى: أنَّ من تكلَّم بكلام سَلِمَ من العيوب المذكورة؛ يقال عنه: متكلم فصيح. ولا يكون الكلام بليغًا، ولا صاحبُه بليغًا؛ إلا إذا كان كلامُه مناسبًا للمقام. والحَكَمُ الذي نحتكم إليه في صحة ذلك هو الذوق السليمُ، وقوانين العربية.

---

(١) هذا هو الأصل، وقد يحسُن في بعض ما يحسن فيه الإيجاز عدم الإيجاز، والعكس.

علم المعاني

علم المعاني

علم المعاني: علمٌ نعرفُ به تركيبَ الجملةِ الصحيحةِ المناسبة للحال، وهو ثمانية أبواب.

وعلماء البلاغة يقسّمون البلاغة إلى ثلاثة علوم: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع.

الإيضاح:

علم المعاني: يُرشدك إلى كيفية استعمال الألفاظ العربية استعمالاً مناسبًا للمقام والمعاني، وينحصر في أبواب ثمانية:

أولها: الإسنادُ الخبريّ؛ نحو: قام زيد[1].

ثانيها: المسندُ إليه؛ نحو: زيدٌ عالِمٌ. الذي أُسند إليه العلم (زيدٌ) فهو مُسند إليه.

ثالثها: المسندُ؛ مثالُه: (عالم) في المثال السابق.

---

(١) كل جملة مفيدة تتضمن إسنادًا خبريًا، ولكن الغرض والحال يختلفان، فقد يكون غرض المتكلم أو الحال يقتضي التوكيد أو عدمه، أو يريد المتكلم الإخبار للفائدة أو لازمها، كما سيأتي تفصيله.

رابعها: متعلّقات الفعلِ؛ نحو: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

خامسها: القصرُ؛ نحو: ما المتنبي إلا شاعرٌ.

سادسها: الإنشاءُ؛ نحو: أتحبّ علم المعاني؟

سابعها: الفصلُ والوصلُ؛ نحو: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤﴾.

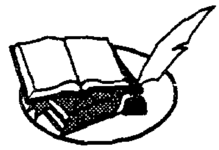
ثامنها: الإيجازُ، والإطنابُ، والمساواةُ:

ـ **مثال الإيجاز**: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ الكلام أقلُّ من المعنى.

ـ **ومثال الإطناب**: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ فيه إطناب بالتكرار.

ـ **والمساواة**؛ نحو: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠﴾ اللفظُ مساوٍ للمعنى.

وهذه الأمثلة لمحةٌ دالَّةٌ. وبسْطُ ذلك في مكانه عند كل بابٍ من هذه الأبواب.



الأول: الإسناد الخبري

هو إخبارٌ بأمرٍ يصحّ أن يقال لقائله: أنتَ صادقٌ.

الإيضاح:

إذا قَصَد المخبرُ بخبرهِ أنْ يفيد المخاطبَ؛ نحو: حضرَ زيدٌ. فذاك فائدةُ الخبر. فإن أرادَ إفادتَه بأنه عالمٌ به؛ فهو لازم الفائدة؛ كقولك لمن أخفى عنك مهارتَه بالكتابة: أنتَ ماهرٌ بالكتابة. أخبرتَه بما يعلمه، ولكنك تريد أن تُفهِمَه أنك تعلم مهارته. كأنك قلتَ: أنا عالِمٌ بمهارتك في الكتابة، ولكنك طويت هذا المعنى؛ ثقة بالمخاطَب وفهمه، وثقة بأساليب اللغة التي تكفُل إفهامَ ذلك المعنى.

وقد يكون الغرضُ من الخبر:

ـ **الاسترحام**؛ نحوُ: أنا فقيرٌ إلى الله.

ـ أو: **إظهارَ الضَّعف**؛ كقول زكريّا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾.

ـ أو: **التوبيخ**؛ كقولك للنائم: الشمسُ طلعتْ!

وقد **ينزّل العالِمُ منزلة الجاهل**؛ كقولك لمن أهمل الصَّلاةَ: الصَّلاةُ واجبةٌ.

والحاصلُ: أن هذه أخبار، ولكنها ليست بمعنى الخبر الحقيقي؛ بل أفادتْ معنًى آخر، يفهم بالوجدان، والإحساس، والحال، والسياق.

والمخاطَب إذا كان مُنكِرًا وجب التوكيد له بمؤكّد أو أكثر، بحسب إنكاره؛ كقوله سبحانه عن المرسَلين إلى أصحاب القرية: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾، فلما زادوا في الإنكار، زاد الرسل في التوكيد، فقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾، ويسمّى خطابًا إنكاريًا.

وإذا كان المخاطَب متردِّدًا يطلبُ التوكيدَ حَسُنَ توكيدُ إخباره؛ ويسمّى: طلبيًّا. ولا حاجةَ للتوكيد لمن لا تردّد عنده؛ ويسمى: خبرًا ابتدائيًّا. وقد يؤكّد لغير السائل، وغيرِ المنكِر، ويجعلُ المنكِر بمنزلة غيرِ المنكر؛ لأحوالٍ تدعو إلى ذلك[1].

---

(١) قد يكون المخاطَب غير متردّدٍ في الظاهر، ولا سائلٍ؛ ولكن يُلقى إليه الخبر مؤكّدا؛ لأنّ الحال يستدعي التوكيد؛ كقول الله عزّ وجلّ لنوح عليه السلام: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾، فإنه لما أُمِر أن يصنع الفلك، ونهاه عن مخاطبته في الشفاعة لهم = صار في مقام المتردّد، السائل عن عاقبتهم، فأكّد له الخبر؛ لأنه في حكم من يحتاج إلى توكيدٍ.

وكذلك: قد يؤكّد لغير المنكِر؛ إذا لم ينكر بلسانه، ولكن حالَه يشبه المنكِر؛ كقولك لمن يتكلم بحضرة علماء وهو غير مكترثٍ بهم: إنّ هاهنا علماء.

وكذلك: قد ينزّل المنكِر منزلة غير المنكِر، فلا يؤكد له الخبر إذا كان لديه من الأدلة والشواهد ما لو تأمله لزال إنكارُه؛ كقولك لمن ينكر فائدة العلم: العلمُ مفيدٌ. أو: لمن ينكر وجود اللّهِ: اللّهُ موجودٌ.

المسند إليه

يحذفُ لـ: العلم به، والاختصارِ، وضِيقِ الفرصةِ. ويُذكَر: لأنَّه الأصلُ، وللتَّلذُّذِ بذِكره، ولزيادة الإيضاح، والتعظيم. أو لبسط الكلام؛ نحو: هي عصاي.

الإيضاح:

لا بد أن يكون في كل جملة مفيدةٍ جزءان: مُسنَدٌ إليه، ومُسنَدٌ. والمسند إليه هو أشرف الجزأين، وأساسُ الجملة، ويكون: مبتدءًا، أو فاعلًا، أو نائبَ فاعل. فإذا قلتَ: قام زيدٌ. فالذي أسندتَ إليه القيام هو زيدٌ؛ فهو مُسنَدٌ إليه، والقيام مُسنَدٌ. . . وهكذا.

والأصلُ: أن يكون المُسنَدُ إليه مذكُورًا، ولكن قد تَعرِض له أمورٌ تسوِّغُ حذفَه. والحذف في المسند إليه «بابٌ دقيقٌ، لطيفُ المأخذِ، عجيبُ الأمرِ، شبيهٌ بالسحرِ؛ فإنك ترى به تَرْكَ الذِّكر أفصحَ من الذِّكر، والصمتَ عن الإفادة أزْيَدَ للإفادة»[(1)].

---

(1) هذا النص لعبدالقاهر الجرجاني في كتابه: دلائل الإعجاز (١٧٨).

ويحذف لأمورٍ، نعدّ منها، ولا نعدِّدها:

- يحذف **للعلم به**؛ كقوله:

قال لي: كيف أنتَ؟ قلتُ: عليلُ

وكقولك: طيِّب. لمن قال لك: كيف الحال؟ أي: أنا طيب، أو: الحال[1] طيب.

- أو **تعيُّنِه**؛ نحو: عالم الغيب والشهادة.

- أو **لضيق الفُرصة**؛ كقول الصّيّادِ: غَزالٌ!

- أو **تعجيل المسرّة والبشرى**؛ كقولك لصديقك تبشّره حين عثرْت على اسمه في الناجحين: ناجحٌ!

- أو **لحاجتك للإنكار**؛ كقولك: حضرَ. عمّن سئل عن حضور زيد؛ فإنك تستطيع أن تقول: عَنَيْتُ شخصًا آخر[2]. أو كقولك عن إنسانٍ: لئيمٌ. أو: بليدٌ، ونحو ذلك. ولا بدّ من وجودِ قرينةٍ تدلّ على الحذْفِ؛ فإنْ ضعُفتِ القرينةُ ذُكِر المسنَد إليه، كما سيأتي.

وأما ذكر المسند إليه، فلأمور، منها:

- أنَّ ذِكره هو الأصل، فإذا لم يوجد سبب يرجحُ الحذف فالأصل بقاء ما كان على ما كان.

- زيادة تقريرِ المعنى وإيضاحه، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾، أصل المعنى: أولئك المهتدون والمفلحون، ولكنه أعاد ذكر المسند إليه فقال: وأولئك؛ لتقرير المعنى وتوكيده، وأنهم هم المختصون بذلك.

---

(١) لفظ الحال يذكر ويؤنث.

(٢) هذا إذا كنت تنوي غيره حقيقة، وإلا فهو كذب، تستطيع أن تنجو به فقط من الناس.

- التلذّذ بذكره، وهذا في كل اسم يذكره المتكلم متلذّذًا به أو بترداده.

- تعظيمه؛ كقول الواعظ: الله الخالق . . . الله الرازق . . . الله هو المعبود.

- إذا كان المقام يحسُن فيه بسط الكلام والتفصيلُ؛ كقول موسى حين سأله الله وقال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾، قال موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾، والأصل أن يقول: عصاي، ولكنه ذكر المسند إليه ﴿هِيَ﴾ لإرادته البسط في الكلام، ولهذا اتكأ على المسند إليه وبَسطَ الكلام فقال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾.

ويُعرَّفُ بالضَّمير، أو العَلَمِيَّة، وباسم الإشارةِ، وباللّام، وبالإضافةِ. ويُنَكَّرُ، ويُقدَّمُ، ويؤخَّرُ؛ لأحوالٍ تقتضي ذلك.

الإيضاح:

إذا ذكر المسند إليه، فإما أن يكون معرَّفاً بالضمير أو غيره:

وتعريف المسند بالضمير يكون لأن المقام للتَّكلُّم؛ نحو: أنا الطالبُ. أو الخطاب؛ نحو: أنت أخي. أو الغيبة؛ نحو: هو صديقي.

ويُعرَّف بالعلمية ليعرفه السامع؛ نحو: اللّهُ المعبودُ. أو تعظيمه، أو إهانته، نحو: الجاهلُ حضر.

والتعريف باسم الإشارة لأغراض؛ منها:

- **تعظيمه بالبُعدِ**؛ نحو: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

- أو **تحقيره بالقُرب**؛ نحو: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾.

- **أو بيان حاله بالقُربِ**؛ فتقول: هذا. أو البعد؛ فتقول: ذلك.

وأما تعريفه بـ«ال» فـ:

- **لبيان العهد**؛ نحو: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾.

- أو **للجنس**؛ كقولك: الإنسانُ أفضل من الأنعام. أي: حقيقة الإنسان. وإلا ففي سائر الحيوان ما هو خيرٌ للبلاد والعباد.

- **والاستغراق**؛ نحو: ﴿وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾، أي: كلُّ إنسان خلق ضعيفًا.

وأما تعريفه بالإضافة؛ فلأنها أخْصَر. كقولك: هوايَ في العلم. فهذا أخصرُ من قولك: الذي قلبي إليه مائل هو العلم. أو: الهوى الذي في قلبي إلى العلم.

وأما تنكيره؛ فـ:

- **للإفرادِ**؛ نحو: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾، أي: رجلٌ واحدٌ.

- **وللتعظيم**؛ نحو: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: حرب عظيمة.

وأما تقديمه؛ فـ:

- **لأنه الأصل**.

- أو **للتفاؤل**؛ نحو: سعدٌ في داري.

وأما تأخيره؛ فلأنّ المَقام يطلبُ تقديمَ المسندِ؛ نحو: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾، أي: لا فيها ـ وحدها دون غيرها من خمر الدنيا ـ. ولو قال: لا غول فيها. لم يُفِد هذا المعنى.

ولأغراض أخرى موضحة في «تقديم المسنَد».

* * *

وقد يوضعُ المضمرُ موضعَ المُظْهَرِ، والعكسُ، ويُنقلُ الكلامُ من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ.

الإيضاح:

جميع ما تقدّم جارٍ على ما يقتضيه الأصل والظاهرُ، وقد يخرُج الكلام عن هذا الأصل، فيوضَع المضمَر موضعَ المظهَر؛ كضمير الشأن، أو القصة. كقولهم: هو ـ أي: الشأن ـ زيدٌ عالِمٌ.

ووضع المظهَر موضع المُضمَر؛ كقوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، **الأصل**: من وعائه، مكان «أخيه»[1].

ومن ذلك: **الالتفات**؛ وهو: أسلوبٌ عذبٌ يُنقَلُ الكلامُ فيه من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ؛ للإيقاظِ، وتطريةِ نفس السامع، وتشويقِه، وإمتاعِه. ومن ذلك: قولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾، هذا كله أسلوبُ غَيبةٍ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الخطاب، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، فهو التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب.

ولذلك لطائفُ وفوائدُ؛ فإنّ العبدَ إذا ذكر الحقيقَ بالحمدِ عن قلبٍ حاضرٍ، وذَكَر تلك الصفاتِ العِظام التي تحرّك قلبَه قَوِيَ ذلك المحرّك إلى أن يقولَ لمن له تلك المهابةُ والعظمةُ والجلالُ مخاطبًا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾.

(١) وضع الاسم الظاهر مكان الضمير في الكلام البليغ لا بد أن يكون لفائدة. والفائدة في هذا الموضع، حتى لا يفهم أن الضمير يعود إلى يوسف.

والالتفات من الخطاب للغَيبةِ؛ كقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾، كان الكلام خطابًا في قوله: ﴿كُنتُمۡ﴾، ثم قال: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾، ولم يقل: بكم. وفي القرآن أمثلة كثيرة للالتفات[1].

---

(١) جميع أمثلة الالتفات موجود في القرآن؛ عدا الالتفات من الخطاب للتكلّم، ومثاله: قول من يخاطب نفسه: لا تحزني يا نفس، ثم يقول: أتوب إلى الله.

المسند

يُحذفُ المسند، ويُذكر؛ لِمَا مَرّ في المُسنَدِ إليه. ويكونُ فعلاً؛ للتقييد بزمنٍ، ولإفادة التجدُّدِ. ويكون اسمًا؛ للثُّبوتِ، والدوامِ. ويقدَّم؛ للتخصيص، والتفاؤل، والتشويق.

الإيضاح:

ـ مَن حَذِقَ المسنَد إليه، وعرفَ الغرَض من ذِكره أو حذفه... إلخ؛ عرف أحوالَ المُسند. والمُسنَد قد يكون فعلاً؛ للتقييد بواحد من الأزمنة الثلاثة: (الماضي، والحال، والاستقبال) فتقول: قرأ زيدٌ. أو: يقرأ. أي: الآن، أو غدًا.

فإذا كان المسنَد اسمًا؛ نحو: محمَّدٌ سَخِيٌّ. فدلالتُه على الثبوت والدوام حينئذٍ.

وأما إذا كان فعلاً؛ نحو: زيدٌ يسخو. فلإفادة التجدُّد. ولا يفيد الدوام.

ـ ويقدم المسنَد؛ **للتخصيص.** نحو: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾.

ـ أو **للتفاؤل؛** كقولك للمريض: في عافيةٍ أنت.

ـ أو لأنه يجب تقديمه في تركيب الكلام، نحو: كيف الحالُ؟

ـ **وللتشويق**؛ نحو: لك عندي اليوم جائزة.

ـ ولأنه أهمّ والمقصود بالإخبار: كقوله:

مساكينُ أهل العشقِ حتى قبورهم
عليها تراب الذّلّ بين المقابرِ[1]

(١) المسند هو الخبر (مساكين) ولما سمع ابن المعتز هذا البيت، قال: لا، والله، ما أذل الله تراب قبر عاشق قط، بل أجلّه الله وأعزه، ثم أنشد شعرًا لنفسه بهذا المعنى، وكلاهما كاذب في دعواه.

متعلَّقات الفعل

يُحذفُ الفاعلُ؛ لـِ: العلم به، أو الجهل به، أو الخوف منه، أو عليه، أو الاختصار. نحو: كُسِر الزجاجُ.

ويحذفُ المفعولُ؛ لـ: البيان بعد الإبهام، أو دفع توهُّمِ غيرِ المراد، أو للعمومِ، أو للاختصارِ، أو مراعاةِ الفاصلةِ.

الإيضاح:

متعلَّقاتُ الفعل هي: الفاعل، والمفعول به، والحال، والظرف، والجار والمجرور.

وأهم ما يُعنى به البلاغيون في هذا الباب: **الحذف**. لا سيما في المفعول والفاعل. فإذا قلتَ: كُسِر الزجاجُ. بأنْ حذفت الفاعل وأقمتَ مُقامه المفعولَ؛ فإن الحذف في الكلام البليغ هنا لا بد أن يكون لغرض؛ كالعلم به وأنت تريد الاختصار، أو لأنك لا تعلم من هو الكاسر، أو لأنك تخاف منه، أو تخاف عليه، أو لأنك تريد الإبهام على السامع، أو لمراعاة الوزن، أو موافقة السجع، أو **إيثار المفعول على ذِكر الفاعل**. وفي ذلك يقول الناظم:

وحـــذفُــه لـــلــخـــوفِ والإبـــهـــامِ
والـــوزنِ والـــتـــحـــقـــيـــرِ والإعـــظـــامِ
والـــســـجـــعِ والـــوفـــاقِ والإيـــثـــارِ
والـــعـــلـــم والـــجـــهـــلِ والاخـــتـــصـــارِ

- وأما المفعول فيحذف لأغراضٍ؛ منها:

١ - البيانُ بَعْدَ الإبهام: ويكون ذلك بعد فعل المشيئةِ المسبوقِ بأداةِ شرطٍ؛ كقوله سبحانه: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، أي: لو شاء هدايتكم. ولكن ما بعده وهو ﴿لَهَدَىٰكُمْ﴾ أغنى عن ذِكْر المفعول. وكقولك: لو شئتُ لسافرتُ. أي: لو شئتُ السّفرَ. فقولك: «لو شئتُ» إبهام؛ لأن السامع لا يدري ما الذي تنويه، فإذا قلت: «لسافرتُ» زال الإبهام، ولم يكن بحاجةٍ لذكر المفعول به.

٢ - دفع توهُّم ما لا يُراد: ويمثّل له أهل المعاني بقول البحتري:

وكـــم ذُدتَ عـــنـــي مـــن تـــحـــامُـــلِ حـــادثٍ
وسَـــورةِ أيّـــامٍ حـــزَزْنَ إلـــى الـــعـــظـــمِ[١]

أي: حززن اللحمَ إلى العظم. ولو قال ذلك لنقصت الصورة، ولتوهّم السامع أن الحزَّ لم يكن شديدًا قويًا، ولكنه لمّا حذف المفعول به وهو «اللحم» أفهم السامع أنه نَفَذ من اللحم سريعًا، ولم يردّه إلاَّ العظم.

٣ - لإرادة العموم؛ كقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾، أي: يدعو كلَّ أحدٍ.

٤ - الاختصارُ؛ نحو: أنا أُصغِي إليك. أي: أُصغي إليك أُذُني[٢].

(١) يقول: دفعت عني كثيرًا من حوادث الزمان ونكبات الأيام التي قطعت من جسدي حتى وصلت العظم.

(٢) لأن «أصغي»، معناه: أُميل، وهو يحتاج إلى مفعول.

٥ ـ **مراعاة الفاصلة**؛ كقوله سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾، أي: وما قلاك.

٦ ـ **وقد يكون الحذفُ للتأدّب في الحديث**؛ كقول البحتريّ:

قد طلبنا فلم نجد لك في السُّؤ
دَدِ والمجد والمكارم مِثلاً

أي: طلبنا لك مِثلاً، فلم نجد لك مِثلاً، ولكنه حذَفَ مفعولَ «طَلبنا» لأن الذَّوق لا يسوِّغ أن يقال لممدوح كبير: طلبت مثيلاً لك. ولكنه يسوغ أن تقول: لم أجد لك مثيلاً. ولهذا لم يحذفه في النفي.

وقد يكون الغرض في مثل هذا الباب هو:

ـ **ذِكر الفعل فقط، وإثبات وقوعه**؛ كقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: هل يستوي من يعلم ومن لا يعلم.

وكقولك: فلانٌ يعطي ويمنع، ويأكل ويشرب. الغرض من هذا كله ذِكر الحدث، وهو الإعطاء والمنع، والأكل والشرب. وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾، الغرض من هذا كله **إثبات معاني هذه الأفعال** وحسب. ويقول البلاغيون عن هذا: جُعِل الفعل المتعدّي كاللازم.

❊ ❊ ❊

والأصلُ في المفعولِ أن يؤخَّر عن الفعلِ، وقد يقدَّم؛ لـ: التخصيصِ، أو: لردّ الخطأِ في التعيين. وقد يقدَّمُ على الفاعل؛ لأنه أهمّ.

الإيضاح:

الأصل في المفعول أن يتأخر عن الفِعل، ولكنه قد يتقدم؛ لِدَواعٍ؛ منها:

١ ـ **التخصيص**؛ نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، ونحو: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾.

٢ ـ **ردّ الخطإ في التعيين**؛ نحو: محمّدًا رأيتُ. لمن اعتقد أنك رأيتَ غيرَه. وقد تضمّن هذا التقديمُ صورتين:

الإثبات والنفي في وقت واحد؛ أي: إثبات رؤية محمد، ونفْي رؤية مَن عداه. ولو قلت: رأيت محمّدًا. لم يكن في ذلك إلا إثباتُ الرؤية.

وقد يقدَّم المفعولُ على الفاعل؛ **لأنه أهم**، نحو: وَرِث المالَ زيدٌ.

القصر

حقيقيٌّ؛ نحو: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله. وإضافيٌّ؛ نحو: لا شاعرَ إلا المتنبي. وكلٌّ من الحقيقي، والإضافي: إما قصرُ موصوفٍ على صفة، أو قصرُ صفةٍ على موصوف.

الإيضاح:

القصر: أسلوبٌ يفيد التوكيدَ، ويوجِزُ الكلام، ويمكِّنه في الذهن. فلو قلتَ ـ مثلاً ـ: المؤمنُ يدخل الجنّة، والكافرُ لا يدخلُ الجنّة. تستطيعُ أن تجمع هاتينِ الكلمتين في جملةٍ واحدةٍ؛ فتقول: لا يدخلُ الجنّةَ إلا مؤمنٌ. فقد جمعتْ هذه الجملة مع الإيجاز التوكيد والحصر.

وهو نوعان:

١ ـ **قصر حقيقي**. وهو: ما كان مقصورًا على مَن هُوَ له، ولا يتجاوزه إلى غيره؛ نحو: لا إله إلا الله. أي: لا معبود بحقٍّ إلا الله. ونحو: لا خالقَ مِنْ عدمٍ إلاّ اللّهُ. ونحو: لا رسولَ بعد عيسى إلا محمَّدٌ، ولا قبلة إلا الكعبة.

٢ ـ **قصرٌ إضافيٌّ (غير حقيقي)**، نحو: ما زيدٌ إلا كاتبٌ. الغرض من

ذلك: إثباتُ مَلَكة الكتابة لزيد، وأنه لا يتعدّاها إلى مَلَكة أخرى؛ كالشعر، والخطابة. كأنه بالإضافة إلى الكتابة لا مَلَكة عنده.

فالقصر الإضافيُّ؛ يكون بالنسبة إلى شيء أو أشياء معيَّنة، وإلاّ فإنّ له ملكاتٍ أخرى ولكنها دون هذه المَلَكَةِ في التميُّزِ والإبداع. ولهذا سَمَّيْناهُ قصْرًا غيرَ حقيقيٍّ.

ثم إنّ كلاًّ منهما ينقسم إلى قصرِ صفةٍ على موصوف، وقصرِ موصوف على صفة[1].

مثال قصر الصفة على الموصوف: لا محييَ إلا الله. قصرْنا صفة الإحياء على الله؛ وهو قصر حقيقيٌّ.

وكقولنا: ما الحَجَرُ إلا جَمادٌ. قصرْنا الموصوف وهو الحجرُ على صفة الجماديّة؛ وهو حقيقيٌّ أيضًا.

ومثال قصر الصفة على الموصوف في الإضافة: ما شاعر إلا المتنبي.

ومثال قصر الموصوف على الصفة: ما المتنبي إلا شاعر، وكلاهما غير حقيقيّ.

ومن جهة أخرى: القصر الإضافي يحدّد المراد، وينفي الشك، ويصحح اعتقاد المخاطب إذا كان اعتقاده غيرَ مطابق للواقع. فمن كان يعتقد ـ مثلاً ـ أن عددًا من الطلاب خرجوا ولم يخرج إلا زيدٌ؛ تقول: لم يخرج إلا زيدٌ. فهذا يسمَّى **قصرَ إفراد**. ويخاطَب به ـ إذَنْ ـ من يعتقد الاشتراكَ.

الثاني: قصرُ القلب: فمَن ظن أنك مدير، ولست مديرًا؛ قلت: إنما

---

(١) المراد بالصفة ـ هنا ـ: الوصف اللغوي لا النعت النحوي، فإذا قلت: عليٌّ شاعرٌ. فالموصوف (علي) والصفة (شاعر) وهو في النحو مبتدأ وخبر.

أنا نائبٌ عنه. ومن قال لك: أنت شاعر، ولستَ بشاعرٍ؛ قلت: إنما أنا كاتبٌ.

الثالث: قصر التعيين: ويقال لمن لم يثبت لديه أمرٌ في جهتين؛ كمن شكّ: هل اليومَ السبتُ، أو الأحدُ؛ تقول له: إنما اليوم الأحدُ.

فهذه الأنواع الثلاثة من القصر الإضافي: تُعيِّن الصواب، أو تصحّح الخطأ، أو ترفع الشكّ.

طرق القصر

وطُرق القصر:

- النفي مع الاستثناء؛ نحو: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.
- «إنما»؛ نحو: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾.
- العطف بـ«بل»؛ نحو: ما الجاحظُ شاعرٌ بلْ كاتِبٌ.
- وبـ«لكن»؛ نحو: ما زيدٌ قائمٌ لكن قاعدٌ.
- والتقديم؛ نحو: حنيفيٌّ هو.

الإيضاح:

طرق القصر؛ هي: أدواتُه، وأساليبه. وهي كثيرة؛ منها:

١ ـ **النفي مع الاستثناء**، نحو: لا قائم إلا زيد، وكما في الآية المذكورة التي قُصِرَت فيها الحياة الدنيا على اللّعب واللهو... واعلم أن ما بعد «إلا» هو المقصور عليه دائمًا في كل أنواع القصر.

٢ ـ **إنما**؛ نحو: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾، قُصِر الضمير على النذير. وكذلك الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ قصر الغيب وجعل لله، والمقصور عليه ـ هنا ـ هو المؤخَّر أبدًا.

٣ ـ **العطفُ**:

- **بـ«لا»**؛ نحو: زيدٌ شاعرٌ لا كاتبٌ. والمقصور عليه ما قبل «لا».

- والعطف **بـ«بل»**: ما زيد شاعرٌ بل كاتبٌ.

- **وبـ«لكن»**؛ نحو: ما زيد شاعرٌ لكن عمرو. والمقصور عليه هو الذي يأتي بعد «بل» و«لكن».

٤ ـ **التقديم**؛ نحو: إيّاك نعبدُ. ومثلُه: كلُّ معمول تقدَّم على عامله؛ نحو: القمرَ رأيتُ. وكتقدُّمِ الخبر على المبتدأ؛ كقولك: مسلمٌ أنا. والمقصور عليه هو المتقدم، والمتأخر هو المقصور. ومن ذلك أيضًا: توسيط ضمير الفعل؛ كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ﴾.

وثمَّةَ أساليب أخرى للقصر؛ نحو: لا غير، وليس إلا. وكقولك: جاءني زيدٌ وحدَه. و: العِلم محصورٌ فيكَ. أو: مقصورٌ عليك. ولكن هذه الأساليب ليست من أساليب القصر المصطلح عليها، وإن كانت بمؤدّاها[1].

---

(١) أشرت إلى طرق القصر في بيت واحد في «ما هبَّ ودب» وهو:

و«مـا» و«إلا» «إنـمـا» تـقـدُّم طـرقُ قـصـرٍ وردتْ يـا (فـنـدِمُ)

الخبر والإنشاء

الخبر: ما يصحّ أن يقالَ لصاحبهِ: أنت صادقٌ. أو: كاذبٌ. والإنشاءُ لا يقال لصاحبه ذلك. وهو نوعانِ:

طلبيٌّ. وهو: ما يستدعي مطلوبًا غيرَ حاصلٍ وقتَ طلبهِ؛ إما: بالأمر، أو النهي، أو الاستفهام، أو التمني، أو النداء. نحو: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾، و﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ﴾، و﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨﴾، و﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾، و﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي﴾.

وغير طلبي. وهو: ما لا يستدعي مطلوبًا. وأساليبه كثيرة؛ منها: المدح، والذم، والتعجّب، والرجاء، والقسَم، وصِيغ العقود.

الإيضاح:

تقدّم الكلام عن الخبر والإخبار في الإسناد.

والخبرُ: إما أن يكون صادقًا، أو كاذبًا. ولهذا لا يوجد نَسخ فيما أخبر به الوحي؛ لأنه كلّه صدقٌ. والخبر الصادق لا ينسخ، وإنما يكون النسخ في الأمرِ، والنهي.

والإنشاءُ: لا يصح أن يقال لقائله: أنت صادقٌ. أو: كاذبٌ. فمن قال لك: يا فلانُ أَقبِلْ. لا يصحّ أن تقول له: صدقتَ. أو: كذبتَ. . .

والإنشاء نوعانِ:

- **طلبي**. وهو: طلبُ شيءٍ لم يكن حاصلاً وقتَ طلبه. وأساليبه: الأمر، والنهي، والاستفهام، والنداء. كالأمثلة المذكورة.

ولهذه الأساليب معانٍ أصليّة، وهي طلب الفعل على وجه الإلزام في الأمر، وطلب الكفّ على وجه الإلزام في النهي، وطلب الإقبال في النداء، وطلب الفهم في الاستفهام، وأُرشدك إلى التوسع في هذا الباب والرّجوع إلى المطوّلات، ومن ذلك معاني الاستفهام وخاصة الهمزة وهل، فالهمزة: لتصور الشيء، نحو: أهذا زيدٌ أم خالد؟ وللتصديق (الحكم عليه بالإثبات أو النفي)، نحو: أكتابي عندك؟

وأمّا «هل» فَلِطلب التصديق لا غير، نحو: هل نادى المؤذن؟

وبقيّة أدوات الاستفهام للتصور فقط، نحو: أين الإمام؟ ومتى نُصلي، ومن يقيمُ؟ وكم عددكم؟

وجوابها كلّها يكون بتعيين ما سئل عنه.

- **غير الطلبي**، وله صيغ كثيرةٌ؛ منها:

١ - **المدْح، والذّم**. نحو: نعم الصديقُ الصدوقُ. و: بئسَ الرفيقُ الغادرُ.

٢ - **التعجُّب**. وصيغته القياسية: «ما أفعَلَه - وأفْعِل به»، تقولُ: ما أعظَمَهُ، وأعظِمْ بهِ. وله صيغ مسموعة؛ كالاستفهام بـ«كيف» في موطن اللّوم والتوبيخ؛ كقولك: كيف تَخُونُني وأنت أخي؟! وكقولهم: لله درُّه!

٣ - **الرَّجاء**؛ نحو: لعلَّ الفرج قريب. و: عسى الله أن يهديَه.

٤ - **القسَم**؛ نحو: والله إنّي لصادق.

٥ - **صِيَغ العقود**؛ نحو: بعتُك سيارتي. وكقولك: زوّجتُك. أو: وهبتُ لك هذا المال.

الفصلُ والوصلُ

الوصل: عطفُ جملة على جملةٍ بالواو. والفصل: تركُ العطفِ. ويجب الفصل بين الجملتين في مواضع ثلاثة:

- أحدها: أن يكون بين الجملتين كمالُ اتصال؛ أي: اتّحادٌ تامٌّ؛ بأن تكون الثانية توكيدًا، أو بدلاً.

- الثاني: أن يكون بين الجملتين كمالُ انقطاعٍ؛ أي: تباينٌ تامٌّ؛ بأن لا يكون بين الجملتين مناسبة.

- الثالث: أن يكون بين الجملتين ما يُشبه كمالَ الاتّصال؛ بأن تكون الثانية جوابًا لسؤالٍ يُفهَم من الأولى.

الإيضاح:

الفصلُ والوصلُ جوهرٌ في عِقدِ علم المعاني، فقد سُئل بعضهم: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل والوصل. وقال عبدالقاهر: «إنه لا يكمُل لإحراز الفضيلة فيه أحدٌ إلا كَمُل لسائر معاني البلاغة» وللبلاغيّين - لا سيما الأوائل - في مواطن الوصل كلام يَهتزُّ لَهُ الوجدان، وتطرب له النفوس؛ لِما فيه من إظهار أسرارِ العربية، وإبرازِ محاسِنها ودقائقها وإشراقاتِها... وضوابطُ هذا الباب كثيرة. ومعرفةُ المتكلم بقوانين النحو هي التي تضبِط له

الإصابةَ في مقصده، وكذلك تحرّي الدقة في اختيار الكلام المناسب، والوقفِ المناسب، والحرفِ المناسب... إلخ.

مواضع الفصل:

١ ـ **إذا كان بين الجملتين اتّحاد تامّ**. ويسمّى: كمال الاتصال. وذلك إذا كانت الثانية توكيدًا، أو بدلاً منها، أو عطف بيانٍ:

مثال التوكيد: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ توكيدٌ، وبيانٌ، وتثبيتٌ لقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ فهو بمنزلة: ذلك الكتاب، ذلك الكتاب. ولو كان الكلام: ولا ريب فيه، لما حصل هذا المعنى.

ومثال البدل: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ومثال عطف البيان:

أقسم بالله أبو حفصٍ عُمَرْ

«أبو حفص» فاعل، و«عمر» بدل أو عطف بيان منه، و«عمر» هو أبو حفص. ولو قلت: «وعمر» لتغيّر المعنى، وصار اسمًا لذات أخرى.

٢ ـ **إذا كان بين الجملتين تباين تامّ**. وهو ما يسمّى بـ: كمال الانقطاع؛ لاختلافهما في الخبر والإنشاء، أو بألاّ تكونَ بينهما مناسبة؛ كالأمثلة المذكورة. فقولك: السماءُ صافيةٌ، الدنيا متاعٌ. لا مناسبة بين الجملتين إذا عطفْت، والعطف يفيد التشريك بينهما في مناسبةٍ ما، ولا مناسبة. وقولك: لا تكلمني، هذا أوان تسبيحي. الجملة الأولى: إنشائية؛ لأنها نَهْيٌ. والثانية: خبرية، والعطف بالواو يوهم غير المراد، والمراد هو: التنبيه على أنّ هذا الوقت وقت تسبيحه؛ كأنه قال: لا تكلمني؛ لأن هذا أوان تسبيحي. والعطف بالواو يلغي هذا المعنى.

٣ ـ **إذا كان بين الجملتين ما يشبهُ كمالَ الاتّصال؛** كقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، فإن قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ﴾

تعليل. كأنه سُئِل: لم لا تبرّئ نفسَك[1]؟ وقد يكون السؤال مذكورًا كقول الشاعر:

قال لي: كيف أنت؟ قلت: عليلُ

فلو قال: وقلت: عليل لتغيُّر المقصود، ولم يصِرْ جوابًا لـ«كيف أنت؟» وصار إخبارًا معطوفًا على «قال لي».

ويجب الوصل في ثلاثة:

أحدها: إذا اتفقت الجملتان خبرًا وإنشاءً، وكان بينهما تناسُبٌ تامٌّ، ولا سببَ يدعو إلى الفصل؛ نحو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾.

الثاني: إذا أوهَم تركُ الواو غيرَ المقصود؛ كقولك لمن قال لك: هل عوفي فلان من مرضه؟ فتقول: لا، وشفاه الله.

الثالث: إذا قصد التشريك بينهما في الحكم الإعرابي؛ كقولك: حُبُّ العلم أراح قلبي، وأذكى خاطري. ونحو: هو يعطي ويمنع، ويقول ويسمع.

الإيضاح:

المراد بالوصل ـ هنا ـ: الوصلُ بالعطف؛ ولهذا عرَّفه الخطيب في التلخيص بقوله: «الوصل: عطف بعض الجمل على بعض، والفصل: تركه»، أي: تركُ ذلك العاطفِ.

وحرف العطف الذي يكون في هذا الباب هو: الواو. وأما الحروف

(١) هذا إن كان الكلام ليوسف، ويحتمل أن يكون من كلام امرأة العزيز، بل هو الظاهر، وتقدير السؤال: لم لا تبرئين نفسك؟

الأخرى فإنها لبيان معانٍ أخرى غير الوصل، وأما الواو فلمجرد العطف. ومواضع الوصل ثلاثة، وهي وأمثلتُها واضحة؛ لهذا تعمّدْتُ تفصيلها في المتن.

المساواة

المساواة: أن تكون الألفاظ بقدر المعاني؛ نحو: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وكقول الشاعر:

ستُبدي لك الأيام ما كنت جاهلًا
ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّدِ

الإيضاح:

قد علمنا أنّ الكلام يجب أن يُراعَى فيه مقتضى الحال؛ وهذه هي البلاغة. ومن المقامات ما يحتاج إلى كلامٍ متوسِّطٍ، لا طولَ فيه ولا قِصَر؛ لتوسط الوقت، أو لتوسُّط فهم المخاطبِ، أو لتنوُّع المخاطَبين، أو لغير ذلك.

وليس في الكلام الطويل ما يجزم فيه أحد من الناس بمساواته مساواة تامّة للمعنى، ولكنّ الأمرَ نسبيٌّ. والحكم على ذلك من حيث الإجمال لا من حيث التفصيل، وإنما نستطيع الحكم بأن هذا الكلام مساوٍ لمعناه مساواةً تامّة، أو مساواة قريبةً منها في الكلام القليل؛ كما في المثالين المذكورين.

وأما فيما زاد على ذلك، فإن المسألة من باب التقريب. وإنما الكلام بالنسبة للمعنى كاللباس الذي يلبسه المرء.

فالإيجاز: كلباس السوءتين؛ إذا كان المقصودُ سترَهما فحسب؛ كالحال التي يكون الإنسان فيها وحدَه، أو مع زوجه.

والمساواة: كلباس الثوب الكامل الذي يستر البدنَ كلَّه غيرَ رأسه وبعضِ أطرافه؛ كالحال التي يكون فيها بحضرة من لا يحتشم منه من أهله وصحبه.

والإطنابُ: كاللباس الزائد على ذلك، حين يحتاج المقام إلى زيادةٍ؛ كالحال التي يكون فيها الإنسان في مقام الزينة، وعند من يستحيي منه.

الإيجاز

أن يكون المعنى زائدًا على اللفظ. وهو نوعان:

١ - إيجاز قِصَر: يعبَّر فيه عن المعنى بعبارةٍ قصيرة من غير حذفٍ؛ كقوله سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾.

٢ - إيجازُ حذف: ويكون بحذف كلمة أو أكثر، مع قرينة يتبيَّن بها المحذوف: نحو: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾، أي: كلَّ سفينةٍ صالحةٍ. ونحو: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، أي: أهلَها. ونحو: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾، أي: فضربه فانفلقَ. ونحو: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾، أي: فأرسلوني إلى يوسف فأرسلوه، فقال: يا يوسف...

الإيضاح:

تعتمد العربية في كثير من مقاماتها على الإيجاز؛ بل عرَّف بعضهم البلاغة بأنها الإيجاز. ولهذا قالوا: خير الكلام ما قلَّ ودلَّ. والكلامُ الموجَزُ أحكمُ وأدقُّ وألخصُ، والكلام المبسوط أبينُ وأخلصُ.

وأهل المعاني، يقسمون الإيجاز إلى قسمين:

١ ـ **إيجاز قِصَر**: بأن يكون كثير المعنى قليل اللفظ، ولا يكون فيه حذفٌ. وخير مثالٍ له الآية المذكورة: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، فإن في هذا اللفظ من المعاني ما يطولُ شرحه، ويتضح ذلك بمقارنته بقول العرب: «القتلُ أنفى للقتلِ»[١]، فإنه أوجز وأفصح وأبلغ.

٢ـ **إيجاز حذفٍ**: كما في الأمثلة المذكورة.

وإيجاز الحذف مقصدٌ من مقاصد البلغاء، وهو اللائق بأهل الحكمة، وجعله «ابن جِنّي» من الشجاعة العربية؛ لما فيه من جرأة على الاقتدار، والثقة بالمخاطب. والأمثلة التي ذكرناها في المسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل شواهدُ صدقٍ على أن الحذف في موضعه أبلغُ من الذِّكر... وتأمّل الحذف في آية: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أصله: واسأل أهل القرية؛ لأنهم هم الذين يُسألون حقيقةً، ولكنهم أرادوا: أنّ الخبر لمْ يَخْفَ على أحدٍ من أهلها، وأنه قد ذاع وشاع، فلم يبق مكانٌ فيها إلا بَلَغَه الخبرُ.

(١) ذكر القزويني في التلخيص فضل الآية على كلام العرب هذا، من سبعة وجوه، وأوصلها الآلوسي في تفسيره إلى عشرة.

الإطناب(1)

الإطناب: أداء المعاني بألفاظ زائدة عليها لفائدة، وله طرق كثيرة؛ منها:

١ ـ **الإيضاح بعد الإبهام**؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

٢ـ **ذِكرُ الخاصِّ بعد العام**؛ نحو قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾.

٣ـ **ذِكرُ العام بعد الخاصِّ**؛ نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

٤ـ **الاعتراض للتنزيه**؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾. أو للدعاء؛ كقول الشاعر:

إن الثمانين ـ وبلِّغتَها ـ
قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمان

٥ ـ **التذييل**؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾.

---

(1) يقال في اللُّغة: أطنب البحر؛ أي: طال مجراه. وأطنب فلان في العَدْو: أمعَن وابتعد. وأطنب في الكلام، أو الأمر: بالَغ، وأكْثَرَ.

٦ ـ التتميم؛ نحو: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾.

٧ـ الاحتراسُ. وهو: أن يُؤتَى بكلامٍ يرفع توهُّم غيرِ المقصود؛ كقول الشاعر:

فَسقَى ديارَك - غيرَ مفسدِها -
صوبُ الرَّبيع وديمةٌ تَهمي

٨ ـ التكرار للتوكيد؛ نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾.

الإيضاح:

الإطنابُ: يقابل الإيجاز. وتكون فيه الألفاظ زائدةً على المعنى؛ لغرضٍ بلاغيٍّ يزيد الكلامَ حُسنًا وجمالاً. وهو في القرآن كثير، وله طرق مختلفة؛ كما فصّلناه في المتن. ونوضح الأمثلةَ المذكورةَ مثالاً مثالاً.

ففي المثال الأول: لفظ: ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ في الآية مُبهَم، ووضّحه ما بعدَه؛ وهو: ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾، وهذا التوضيح يزيد المعنى تقريرًا، وثباتًا في ذهن السامع.

وفي المثال الثاني: عُطِفتْ ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، وهي من الصلوات الخمس على ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ من باب عطف الخاص على العام. والغرض من ذلك: التنبيهُ على شأن هذه الصلاة، والحثُّ على المحافظة عليها، والاعتناء بها.

وعكسه المثال الثالث: الذي ذكر فيه أوّلاً (الوالدين) وهم بعض من يشملهم لفظ المؤمنين، وهو من باب ذكر العام بعد الخاص. والغرض من ذلك: العناية بالخاصّ؛ حيث قدّم ذِكْره وحدَه، ثم جاء بعده لفظٌ يشمل مَن عداه كما يشمله؛ فكأنه ذكره مرّتين.

وفي المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُۥ﴾ جملة اعتراضية لتنزيه المولى عزَّ وجلّ... والاعتراض: أن يؤتى بين كلامين متّصلين في المعنى بجملة أو أكثر، لا محلَّ لها من الإعراب؛ لغرض التنزيه ـ كما في الآية ـ، أو الدعاء ـ كما في البيت ـ؛ فإنّ قولَ الشاعر: «وبُلّغتَها» دعاءٌ للممدوح بأنْ يُبلِّغَه اللّهُ الثمانين عامًا. ونحو: كان ـ رحمه الله ـ عالِمًا عاملاً.

والمثال الخامس: للتذييل، وهو أن يؤتى بجملةٍ تشتمل على معنى جملةٍ قبلها؛ للتوكيد ـ كما في الآية ـ.

والمثال السادس: للتتميم؛ وهو: أنْ يُؤتَى بجملةٍ بعد كلام لا يُوهِمُ خلافَ المقصود؛ لنكتةٍ، كالمبالغة. نحو: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، أي: حبِّ الطعام.

والمثال السابع: للاحتراس. وهذا في قوله في البيت: «غير مُفسدِها» لأنَّ السُّقيا نوعان: سُقيا رحمةٍ، وسقيا عذابٍ، فيحتمل الكلام أن يوهم أنها سقيا عذاب، فاحترس بقوله: «غير مفسدها» عن سقيا العذاب.

والمثال الثامن: للتكرار المفيد. فهو في الآيتين للإنذار والتوكيد. وكقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ للتوكيد، وتقرير المعنى في ذهن السامع. وقد يكون التكرار لطول الفصل، أو التلذُّذِ بذِكْرِه.

علم البيان

عِلمُ البَيَان

علم البيان؛ هو: علم يُريك الطُرقَ المختلفةَ التي تُوضِح بها المعنى الواحدَ المناسبَ للمقام.

ومباحثه: التشبيه؛ نحو: محمد كالبدر، وله أركان، وأنواع، وأغراض. والمجاز؛ نحو: كلَّمَني الأسدُ عليٌّ. والكناية؛ نحو: فلانٌ كثيرُ الرّمادِ.

الإيضاح:

التشبيهُ؛ نحو: محمد كالبدر في الجمال.

وأركانه أربعة: المشبّه، والأداة «الكاف ـ كأنّ ـ مِثل. . . ونحوهما» والمشبّه به، ووجه الشبه.

فإذا ذُكرتْ الأركان الأربعة، كما في المثال، فهو **تشبيهٌ مرسلٌ**، فإنْ حُذفتْ الأداة فهو **مؤكَّد**، فإن حُذف وجه الشبه، فهو **مفصَّل**؛ نحو: النحو للسان كالملح في الطعام. فإنْ حُذف وجه الشبه والأداة فهو **بليغ**، وهو أقواها؛ نحو: محمدٌ بدرٌ.

والمشبه، والمشبه به إما أن يكونا:

حِسِّيَّيْن؛ كتشبيهِ الخَدِّ بالورْدِ، والجِلدِ الناعمِ بالحرير.

أو عقليين؛ كقولك: العلمُ حياةٌ.

أو أحدهما حِسِّيٌّ والآخرُ عقليٌّ؛ كتشبيه الموت بالسَّبُع، أو الخُلُقِ الكريم بالعطر.

أنواع التشبيه:

١ ـ **تشبيه التمثيل**: وهو: ما كان وجه الشبه فيه مُنتَزَعًا من متعدِّدٍ؛ كقول بشَّارٍ:

كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ[1] فوقَ رؤوسِنا
وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبُهْ

والمشبه ـ هنا ـ والمشبه به مركَّبان، ووجه الشبه عبارة عن هيئة منتزعة من أمور متعددة تصور أجرامًا لامعة متفرِّقة تتساقط في جوانب شيء مظلم.

فإنْ لم يكن كذلك، فليس بتمثيلٍ.

٢ ـ **التشبيه الضمني**: كقول أبي الطَّيب:

مَن يَهُنْ يَسْهلِ الهوانُ عَليهِ
ما لِجُرحٍ بِميِّتٍ إيلامُ

فقد شبَّهَ مَن تَعوَّد على الهَوانِ وصار لا يتألّم بالميتِ الذي لا يتألّم من الجرح. ولكنه لم يصُغْ ذلك في صورةٍ من صور التشبيهِ المعروفةِ؛ بل جعل ذلك مضمَّنًا.

---

(١) الغبار.

٣ - **التشبيه المقلوب**: إذا عكس المتكلم طرفي التشبيه سُمّي مقلوبًا، كقولِك: البدرُ كمحمد، وقول الشاعر:

وبـــدا الـــصـــبـــاحُ كـــأنَّ غُـــرَّتَـــهُ
وجـه الـخـلـيـفـة حـيـن يُـمـتَـدَحُ

وهو نوع من البلاغة طريفٌ يفضي إلى ضرب من المبالغة المقبولة.

وقد يُشبَّه شيء واحد بشيئين فأكثر؛ كقوله:

صـــدغُ الـــحـــبـــيـــب وحـــالـــي
كـــلاهـــمـــا كـــالـــلـــيـــالـــي

أغراض التشبيه:

الغرض من التشبيه يعود في الغالب إلى المشبَّه:

- **إما لبيان إمكانه**، كما في التشبيه الضمني[1].
- **وإما لبيان حاله**؛ كقول النابغة:

فـــإنـــك شـــمـــسٌ والـــمـــلـــوك كـــواكـــبٌ
إذا طـلـعـت لـم يـبـدُ مـنـهـنَّ كـوكـبُ

فقد أراد أن يبيِّن حال الممدوح - وهو المشبه - مع الملوك بأنه لا ظهور لهم معه.

- **وإما لتزيينه**؛ كتشبيه الأسْودِ بِمُقْلةِ الظَّبي.
- **أو تقبيحه**؛ نحو: يضحك كالقرد.
- **أو توضيح صورته**؛ حينما تشبه مجهولاً بمعلوم؛ كقولك لمن لا يعرف النَّمِر: النَّمِر كالقِطّ.

---

(١) سبق التمثيل له قبل قليل، وكقول أبي الطيب أيضًا:

فـــإن تـــفـــق الأنـــامَ وأنـــت مـــنـــهـــم ... فـــإن الـــمـــســـك بـــعـــضُ دَم الـــغـــزالِ

المجاز

المجاز. هو: لفظٌ استعمِل في غير معناه الأصلي؛ كأسدٍ في قولك: زيدٌ أسد. ولا بدّ من علاقة بين المعنى الأصلي والمجازي، ومن قرينةٍ تمنع من إرادة المعنى الأصلي...

وهو نوعان:

١ ـ مجاز مرسل، غير مقيّد بمشابهة؛ بل العلاقة فيه:

ـ السببية. نحو: رَعَينا الغيث. والأصل: رَعينا الزرعَ. والغيثُ سببٌ.

ـ أو: العلاقة هي المسَبَّبيَّة؛ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، فإن النار مسبَّبٌ لأكلهم الحرام. وأكل أموال اليتامى سَببٌ.

ـ أو: الكلّية؛ كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم﴾، والمعنى الأصلي: أطرافُ أصابعهم، فوُضِع الكلُّ موضع الجزء.

ـ أو: الجزء؛ كإطلاق العين على الجاسوس... ونحو قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[1].

(١) وهناك علاقات أخرى كثيرة تزيد على ثلاثين علاقة، وأوصلها بعضهم إلى أربعين، تجدها مبسوطة في المطوّلات. وضابطها: أن يصدُق عليها معنى المجاز، ولا يكون فيها تشبيه.

٢ ـ مجاز تكون العلاقة فيه المشابهة بين المعنى الأصلي والمجازي؛ وهو الاستعارة... والعربيُ يعرفُ أصلَ الكلام ببديهتِهِ، ويعلمُ أنّ مخالفةَ الأصلِ أبلغُ.

إذن: الاستعارة مجازٌ علاقته المشابهة. وهي جوهرُ البيان، وجمالُه الخلّاب، والسّحرُ الحلال، والماءُ الزُّلالُ... وهي مبنيّةٌ على تشبيهٍ حُذِف أحدُ طَرَفَيْهِ، ووجهُ شَبَهِهِ، وأداتِه. كقولك عن عالِم لَقِيْتَه: لَقِيتُ بحرًا. أي: كالبحر في السّعة والتدفُّق. أو كقولك عنَ إنسان: رأيتُ شمسًا. أي: في حُسْن الطَّلْعةِ... المشبه به؛ هو: البحر، وهو مستعار. والمشبه: هو العالم، وهو مستعارٌ له. واللفظ مستعار.

الإيضاح:

المجاز: أسلوبٌ من أساليب التوسُّع في البيان. وقليلٌ من علماء الشريعة والعربية ينفي وقوعه في لغة العرب، أو في القرآن خاصّة، وكلُّهم متفق على صحة ما اختُلِف فيه منه؛ وإنما اختلفوا في تسميته. ففي نحو: رأيتُ أسدًا يرمي. يتفقون على أن الأسد هنا إنسان شجاع:

فمنهم من يسميه مجازًا؛ لأن الأسد في الحقيقة هو الحيوان المفترس، واستعير للرجل الشجاع.

ومنهم من لا يسميه مجازًا ويجعل ذلك حقيقة؛ لأنه أسلوب من أساليب العربية، والقرينة التي هي «يرمي» هي التي سوَّغَتْ تسميتَنا له بالأسد.

ومن لا يقول بالمجاز يقول: إنه تشبيه، أو: هو مجاز؛ بمعنى: يجوز استعماله. فيصير الخلاف في اللفظ...

ولنا سؤالان في هذا الباب لمن ينكر المجاز، لا يُطرحان على أحدٍ ممن ينكر المجاز إلا قلّتْ حيلتُه في الإجابة عنهما:

أحدهما: أيّ المسمَّيَيْن سُمِّي به الأسد أولاً؛ هل هو الإنسان أم الحيوان المفترس؟ وحينما نقول عن حافظ يحفظ كثيرًا من العلوم: هذا (حاسوب)... من الذي سُمِّي به أولاً؟

والسؤال الثاني: حين إطلاقنا للَّفظَ المستعمل في المجاز؛ وهو: الأسد في الشجاعة، أو الحمار في البلادة إلى أيّ معنًى ينصرف اللفظ عند الإطلاق؟

والإجابة على السؤالين واحدةٌ، ولذلك لوازم لا انفكاك منها، ولكن المكابرة في هذا الباب تجد مداخل لا تنتهي.

ومن الشُّبَهِ الضعيفة التي يتعلق بها بعض منكري المجاز: أنه يجوز نفيه؛ فلو قلتَ عن البليد: حمارٌ. صح أن تقول: ليس بحمارٍ. ولكنهم ذهِلُوا عن حقيقة هذا الاعتراض؛ لأن المنفيّ غير المثبت. والذي قوّى الخلاف بين بعض من ينفي المجاز ومن يثبته ادّعاءُ المجاز في مواضع لا دليل على التجوز فيها؛ كآيات الصّفات؛ فإن الذين خاضوا في تأويلها تأويلاً أفضى إلى التحريف أو التعطيل لا دليل لهم على صحة المجاز فيها إلا اعتقادُهم الباطل.

والحقُّ أن المجاز واقعٌ في اللغة العربية، وفي القرآن، وأنه ليس بكذبٍ. ومَن أثبته في اللغة ونفاه في القرآن فهو مخطئ بلا شكٍّ؛ لأن القرآن بِلُغَةِ العرب، وبأساليبِهم.

والحق أيضًا أن الأصل في الكلام الحقيقةُ، ولا يُعدَل عنها إلا بدليل. ولهذا بحثٌ آخر؛ وإنما هي مقدمة أردتُ أن أضع معالمها أمام الطالب؛ حتى لا يشوّش عليه من لم يتضلّع من علوم العربية، وقال في هذه المسألة

بالتقليد، وعظَّم الخلاف، وبنى على الخلاف ما هو أكبرُ من الخطإ فيها، وأهملَ كلام الحذّاق النحارير الذين قتلوا هذه المسألة علمًا وبحثًا.

ولنَعُد الآن إلى الإيضاحِ، فنقول: هذا التعريف الشارح للمجاز يوضِحُ أمورًا يُبنى عليها المجاز؛ وهي: استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي. وقلنا: الأصلي، ولم نقل: الحقيقي؛ خروجًا من الخلاف في تسمية الكلام حقيقيًّا وغيرَ حقيقيٍّ؛ وهو: المجاز.

وعلاقةٌ بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي.

وقرينةٌ تمنع من إرادة المعنى الأصلي، والقرينة إمّا حاليّة، أو مقالية، فحينما قال من قال من الصحابة في الترحيب بالنبي ﷺ يوم مقدمه من غزوة تبوك:

طـلـعَ الـبـدر عـلـيـنـا   مـن ثـنـيَّـات الـوداع[1]

علم كلّ من يفقه العربية أن النبيَّ ﷺ هو المراد بـ(البدر) بقرينة الحال، وهي رؤيتهم له، وبقرينة مقالية، وهي «ثنيات الوداع».

ولا يستطيع أن ينفكَّ من لوازم هذه القيود من يدّعي المجاز في صفات الباري عزَّ وجلَّ.

(١) يروى في بعض كتب الحديث أن هذا الترحيب قاله الصحابة حين قدم النبيّ ﷺ إلى المدينة مهاجرًا، ولا يصح، وثنيات الوداع ليست من جهة القادم من مكة. بل من جهة تبوك شمال المدينة.

المجاز المرسل

هو أحد نوعَي المجاز اللغوي، وهو مرسل؛ لأنه لم يُقيَّد بعلاقة المشابهة[١]، بل بعلاقات أخرى؛ منها:

١ ـ **العلاقة المسبَّبِيَّة**: نحو: رَعَيْنَا الغيثَ. والغيثُ هو المطر، والمطرُ لا يُرعىٰ؛ بل الذي يُرعىٰ هو ما ينبُت بسببه؛ وهو المرعىٰ. فالعلاقة بين الغيث والمرعى هي السببية. والحِسُّ والعقلُ كلاهما يأبى إرادة المعنى الحقيقي.

٢ ـ **العلاقة المسبّبة**: كما في الآية؛ فإنهم لم يأكلوا النار ابتداءً، ولكنهم أكلوا المالَ الحرامَ الذي يُسبِّبُ دخولَ النار.

٣ ـ **العلاقة الكلّية**: وتكون بإطلاق الكُلِّ، ولكنك تريد جزءًا منه؛ كقولك: رأيتُ الشمسَ. وأنت إنّما رأيتَ بعضها؛ إطلاقا للكُلِّ، مع إرادة الجزء. وكقول الله سبحانه عن قوم نوح: ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾، وهم إنما أدْخَلُوا جزءًا من أصابعهم.

٤ ـ **العلاقة الجزئية**: وهي عكس التي قبلها؛ كإطلاق العين على

---

(١) وقيل: هو مرسل؛ لأنه لم يقتصر على علاقة واحدة بل أطلق له العنان لعلاقات كثيرة.

الجاسوس، كأنه كلّه عينٌ، وكالتعبير عن الأكول بأنه (فم)، ومن أمثلته في القرآن قول الله سبحانه: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾، الرقبة هي جزءٌ من الجسد، ولكنها الجزء البارز الذي يحمل الرأسَ والوجه الذي فيه معالم الإنسان، فأطلق على الجسدِ كلّه رقبة. فتقول: أُطلِقَ الجزءُ، والمرادُ: الكلُّ؛ على سبيل المجاز المرسل. والعلاقة هي الجزئية.

ويشبهه ما قاله بعض ظرفاء الأدباء في رجل كبير الأنف: «لا أدري أهو في أنفه أم أنفه فيه؟».

٥ ـ **العلاقة الحالّيّة**: كقول أبي الطيب:

إنـــي نـــزلـــت بـــكـــذّابـــيـــن، ضـــيـــفُـــهـــم
عـــن الـــقـــرى وعـــن الـــتَّـــرحـــال مـــحـــدودُ

أراد الأرضَ التي حلَّ فيها الكذّابون، ولكنه أطلق الحالّين، وأراد المحلَّ، وهي الأرض التي يسكنونها. وهناك علاقات أخرى. وهذا النوع من المجاز نوعٌ من التفنُّن في الأسلوب، تستطيع به أن تنقل الكلام من لفظٍ إلى لفظٍ؛ لغرض من الأغراض البلاغية التي تجعلُ مخالفة الأصل أولى من موافقته، ومن تلك الأغراض: الإيجاز، والمبالغة، والتفنّن في الكلام، والخروج من دائرة الكلام الصغيرة إلى ما هو أوسع وأكبر.

والنوع الثاني من المجاز: مجاز تكونُ العلاقة فيه المشابهة. وهي مبنية على التشبيه. وهي: الاستعارة.

وإليكم الحديثَ عنها:

الاستعارة

تنقسم الاستعارة إلى:

مصرحة؛ وهي: التي صُرّح فيها بلفظ المشبَّه به فقط. كما في المثال السابق.

وإلى مكنية؛ وهي: التي حُذِف فيها المشبَّه به، ووجه الشبه، والأداة، واستُبدِل المشبه به بشيءٍ من لوازمه، ولم يُذكر إلا المشبَّه؛ كقول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنيَّةُ أنشبتْ أظفارَها
ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

الإيضاح:

الاستعارة التصريحية - أو المصرَّحَة - سميت بذلك؛ لأنه صُرّح فيها بالركن الأظهر في التشبيه وهو المشبه به. فإذا قلت: لقيت بحرًا. المشبه به: «بحرًا»، أي: كالبحر في سَعة العلم[1]. وقال ﷺ في فرس أبي طلحة لمّا

---

(١) ولكل استعارة ثلاثة عناصر، مستعار منه، ومستعار له، ومستعار، فالمشبه به هو المستعار منه، والمشبه هو المستعار له، والمستعار هو اللفظ الدال على المشبه به للمشبه، ففي «لقيت بحرًا» المستعار منه هو البحر، وهو المشبه به، والمستعار له هو العالِم، و«لقيت» هو المستعار.

رَكِبَهُ: «**وإنْ وجدناهُ لَبحرًا**»، أي: كالبحر في سَعة جَرْيِهِ، أو لأنّ جريه لا ينفد، كما لا ينفَد البحر.

وكقول الشاعر:

فأمطرتْ لُؤلؤًا من نرجسٍ وسَقتْ
وردًا وعضّت على العُنّابِ بالبَرَدِ

فهذا فيه خمسة تشبيهات: تشبيه دمعِها باللّؤلؤ في الصفاء، وعيونِها بالنَّرْجِس في الجمال، وخدِّها بالورد في الحُمرة، وشفَتِها بالعُنّاب[1] في اللون، وأسنانِها بالبَرَدِ في الصفاء.

والاستعارة المكنية في البيت: وإذا المنية... إلخ؛ واضحةٌ... شُبْهت المنيَّة بالسَّبُع، بجامع الاغتيال فيهما، ولم يُذكَر المشبه به[2]، وإنما أُتِي بشيء من لوازمه، وهو الأظفار. كما حُذف الوجه، والأداةُ. وسُمِّيت مكنيةً؛ لأنه لا وجود للمشبه به، وهو الركن الأظهر في أسلوب التشبيه، ويمثل له البيانيون أيضًا بقوله سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، ويقولون في إيضاحها: شبّه فيها الذل بالطائر لجامع بينهما، وهو الخضوع، واستعير الطائر للذّل، ولم يذكر المستعار، وهو الطائر، ورمز له بلازم من لوازمه، هو الجناح، على سبيل الاستعارة المكنية.

وتنقسم أيضًا إلى: أصلية: إذا كان المستعارُ اسمًا جامدًا غيرَ مشتقٍّ؛ كقوله ﷺ لأنجشة: «لا تكسر القوارير»، يعني: ضعفة النساء.

(١) ويحتمل أنه أراد أصابعها.

(٢) عدلنا عن قولهم: ثم حذف المشبه به؛ لأنه مجرّدُ ادعاء.

وإلى **تبعيَّة**: **وهي التي يكون لفظُها الذي تجري فيه فعلًا، أو اسمًا مشتقًّا؛ نحو: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾.**

الإيضاح:

الاستعارة الأصلية[1]: يكون اللفظ المستعار فيها اسمًا جامدًا؛ كـ: أسد، وحاتم، وغزال، وقسّ، ومادِر. إذا أردت أن تشبه أحدًا بما اشتهرت به هذه الأسماء. فإذا قلتَ عن رجلٍ - على سبيل المثال - اسمه عبدالله: هذا حاتمٌ. فهو استعارة أصلية، استعرتَ فيه لفظ «حاتم» وهو المشبه به، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.

وكذلك المثال السّابق: «رفقًا بالقوارير» استعرت فيه لفظ: «القوارير» للنساء. وتفصيل إجراء الاستعارة في هذا أن تقول: شُبِّهتْ النساءُ بالقوارير في ضَعْفِ الاحتمال، بجامع الرّقة في كلٍّ؛ وذلك من باب الاستعارة التصريحية[2] الأصلية.

وأما **التبعيّة**: فالمستعار فيها يكون فعلًا، أو اسمًا مشتقًّا، أو حرفًا:

فمثالها في الفعل: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾، يقول البيانيّون: شبّه الغضب بإنسانٍ يتكلّم، ويسكُت.

ومثالها في الاسم المشتق: قولهم: شريف عملك ناطق بفضلك. شبهت دلالة العمل الشريف بالنطق، بجامع الإفهام في كل منهما، واستعير اللفظ الدّال على المشبه به للمشبّه، واستعير من النطق بمعنى الدلالة (ناطق) بمعنى دال؛ على طريق الاستعارة التصريحية التبعية.

(١) وسميت أصلية؛ لأنها هي الأصل في الغالب.
(٢) لأنك صرحت بالمشبه به.

ومثالها في الحرف: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾.

وفي هذه التقسيمات ـ أعني: تقسيمات الاستعارة ـ تطويلٌ لا ينفع الطالب، ويكفي أن يعرف الاستعارة المكنية، والمصرحة، والتمثيلية.

❊ ❊ ❊

الاستعارة التمثيلية

الاستعارةُ التمثيليةُ. هي: تركيبٌ استُعمِل في غير ما وُضِع له، يكون المشبه به والمشبه هيئةً منتزَعةً من متعدِّدٍ؛ كقول النبيِّ ﷺ: «لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرّتين»، وتقوله لمن يريد أن يخدعك ثانيةً. وكقول العرب: «قَطَعتْ جَهِيزةُ قولَ كلِّ خطيب» لمن يأتي بالقول الفصل بعد اختلاف الآراء.

ونحو: «أنت ترقم على الماء» لمن يحاول في أمرٍ لا فائدة منه. وهكذا كل مثل من هذا النوع؛ نثريٍّ، أو شعريٍّ.

الإيضاح:

الاستعارة التمثيلية: هي أقوى أنواع الاستعارات؛ لأنها أزيد في التوكيد، ولا بدّ فيها من قرينة تمنع إرادة المعنى الأصلي. فليس في حديث: «لا يلدغ. . .» لَدْغٌ، ولا حيّةٌ، ولا جُحرٌ، ولكنه تشبيه؛ شُبّه فيه حالُ من لا يأخذ حِذْره من عدوّه الذي غدر به بحالِ من لدغتْهُ حيّةٌ يحذر منها بعد ذلك.

وكذلك المثال الثاني، وأصلُه: أن قومًا اجتمعوا للإصلاح بين فريقين

في قتيلٍ، فجاءت جارية، اسمها جَهيزةُ، فأنبأتهم أن أولياء المقتول قَتَلوا القاتل، فقال قائل منهم: «قطعت جهيزةُ قول كلِّ خطيبٍ» فصار مثلاً يقال في كلِّ مقامٍ أُتِيَ فيه بالقول الفصل. . .

وكذلك المثال الثالث، شبهت فيه حال من يطلب المُحَالَ بمن يكتب في الماء، والجامع بينهما أن كلًّا منهما يعمل فيما لا ينفع، استعير التركيب المذكور في تلك الجملة، وهي المشبه به للمشبَّه على طريق الاستعارة التمثيلية، والقرينة فيه حاليَّة، ونحوه قولهم: أنت تضرب في حديد بارد، وأنت تنفخ في رماد.

* * *

المجاز العقلي[1]

ويسمّى المجاز الإسنادي، والمجاز الحُكْمِيّ، وهو أن يُسنَد الشيءُ إلى غير ما هو له؛ نحو: بَنَى الأميرُ المدينةَ. نهارُه صائمٌ. نهرٌ جارٍ. جُنّ جُنُونه. ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾. سيلٌ مُفعَم.

الإيضاح:

في البلاغة ما يسمّى بالمجاز العقلي؛ لأننا نعرف المراد منه بالعقل، لا باللفظ وحده، والأمثلة المذكورة توضح ذلك؛ فإن الأمير لا يباشر بناء المدينة، وإنما هو آمر، فهو سبب البناء؛ لهذا نقول: العلاقة هي السببيّة.

والنهار لا يصوم، لكنه ظَرفٌ لزمن الصوم؛ فالعلاقة هي الزمانية. والنهر هو مكان للماء، والماء هو الذي يجري، لا النهر؛ ولكن هذا من باب المجاز الذي علاقته المكانية.

وكذلك الجنون لا يُجَنّ، وإنما يُجَنّ صاحبُه؛ ولكنّنا أسندنا الفعل إلى المصدر من باب المجاز؛ لعلاقةٍ مصدرية بين الفعل والمصدر.

---

(١) من المصنفين من يضعه في الإسناد الخبري في علم المعاني كما فعل صاحب التلخيص.

ومثل ذلك قولك: سيلٌ مُفعَم، فالسيل لا يُفعَم، أي: يُمْلأ، بل يَمْلأ، ولكن جعلنا اسمَ المفعول مكانَ اسم الفاعل، وأسندناه إلى الفاعل مجازًا؛ والعلاقة هي الفاعلية.

وعكسه إذا أُسنِد الوصف المبني للفاعل إلى المفعول؛ نحو: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾ العيشة مرضية، وإنما توصف بأنها رضيت على سبيل المجاز العقلي. . .

وأنتَ إذا تأملت هذه الأمثلة وجدت في كل واحد منها وجهًا بلاغيًا للمجاز؛ فمثلاً قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ وصفت العيشة بالراضية؛ لأن صاحبها لا يجد حوله ما يسخطه؛ كأنّ ما حوله من كل شيءٍ قد امتلأ رضًا؛ فهو راضٍ، وما حوله راضٍ.

فالمجاز العقليّ يزيد اللغة سعة، ويمدّ لها من البيان مدًا، ولولاه لجفت بعض ينابيع اللغة العربية، ولكان في نزعنا من بحار اللُّغة ضعف.

الكناية

إذا قلت: هي بَعيدةُ مهوى القُرطِ[1]. أو: هذا الطعام تأكلُ أصابعك إذا طعمته. أو: هو كثير الرّمادِ. فهو كنايةٌ عن مُرادٍ لم نصرّح به، ولكنّه مفهومٌ من اللّفظ على وجه اللزوم. فالأول: كناية عن طولِ العنق. والثاني: كنايةٌ عن حَلاوة الطعام ولذّته. والثالث: كناية عن الكرم.

الإيضاح:

اتّفق البلغاءُ على أنَّ الكناية أبلغُ من التصريح، وهي تشبه المجاز؛ إلاّ أن المجاز يُمنع فيه إرادة المعنى الأصلي، والكناية لا يمتنع فيها ثبوت المعنى الأصلي. ألا ترى أنك حين تقول: فلانٌ واسعُ الصدر. كناية عن صبْرِه وحِلْمِه؛ أنه يمكن أن يكون واسع الصدر حقيقةً؟ وكذلك حين تقول كناية عن كرمه: هو كثير الرماد. وأما المجاز فلا يصحّ فيه إرادة المعنى الأصلي مطلقًا. ففي نحو: خطب بنا اليوم بحرٌ. لا يصح أن يُراد معناه الأصلي.

---

(١) القُرط: هو ما تعلقه المرأة في أذنها من حليٍّ ونحوه.

ولهذا قالوا في تعريفها: لفظٌ أُرِيد به لازم معناه، مع جواز إرادة المعنى الأصلي؛ لأنه لا قرينة تمنع من هذه الإرادة.

والأمثلة المذكورة توضح ذلك، فالمرأة الطويلة العنق إذا أردنا أن نصفها بذلك تصريحًا، قلنا: هي طويلة العنق. أو شبّهنا جيدها بجيد الغزال. ولكننا إذا أردنا ما هو أبلغ من هذا وأعمق فزِعْنا إلى أسلوب الكناية، فنقول في هذا المعنى؛ كنايةً: هي بعيدة مهوى القرط. أي: أن الحُليّ الذي يكون في أذنها متدلّيًا يجدُ مسافة واسعةً بينه وبين كتفها؛ لطول عنقها. وهذا بلا شك أبلغ من التصريح.

وكذلك قولُهم: هو كثير الرَّماد. فهو كناية عن الكَرم؛ ولكنه بطرق بعيدة، ينتقل فيها الذهن من معنًى إلى معنًى. فإن كثرة الرماد دليل على كثرة ما يُطبخ، والذهن يربط بين هذا وبين كثرة الضيوف، وينتقل سريعًا إلى المقصود؛ وهو: كثرة الجود. . . ومن جميل الكنايات العاميّةِ: قولهم عن الطعام اللذيذ: تأكُلُ أصابعك بعدَه. فإنه يلزم منه لَعْقُ الأصابع، وعدم الشّبع منه؛ لحلاوته لا لكفايته. ويلزم من ذلك: أنه في غايةِ اللّذة، والطعم.

ومن أحسن ما سمعته في الكنايات قولهم عمّن لا يصلي ولا يسجد: عفيفُ الجبهة. أي: لا تقع جبهته على الأرض؛ لأنه لا يسجد.

ومن جميل الكنايات الشعرية:

إن المروءَة والسماحةَ والندى

في قبَّةٍ ضربتْ على ابن الحشْرجِ

أراد الشاعر أن يثبت هذه الصفات للممدوح، لكنه لم يصرح بذلك؛ بل أثبتها في أسلوب كناية بديع، فجعلها في قبة قد ضُربت على ابن الحشرج حتى لكأنها جسدُه كلُّه.

وكقول الآخر:

اليُمْنُ يتْبَعُ ظلَّه

والمجدُ يمشي في ركابهْ

علم البديع

علم البديع

علم البديع. هو: علم يُعرفُ به وجوه تحسين الكلام.

والمحسنات في البديع قسمان:

١ ـ محسنات معنوية. ٢ ـ محسنات لفظية.

أولاً: المحسنات اللفظية:

ـ الجناسُ. وهو نوعان:

١ ـ تامٌ. وهو: أن يتفق لفظاه، ويختلفا في المعنى؛ كقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، وكقولهم: سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل.

٢ ـ ناقصٌ. وهو ما تشابه فيه لفظاه؛ كقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾، وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾.

ومنه الاقتباس. وهو: أخذُ شيءٍ من كلام الله، أو كلام النبيّ ﷺ ومزْجِهِ مع كلامٍ منظومٍ، أو منثورٍ. ولو مع تغييرٍ يسيرٍ؛ كقوله:

يومَ يأتي الحسابُ ما لظلومٍ
من حميمٍ ولا شفيعٍ يطاعُ

الإيضاح:

النوع الثالث من أنواع البلاغة: هو البديع. وهو من زينة القولِ وزُخرفه؛ لأن علم المعاني في أحوال اللفظِ، والإسنادِ، ومطابقة مقتضى الحال. وعلم البيان: أسلوبٌ من أساليب الإيضاح التي تجلّي المعنى، وتوضح منزلته. فالمعاني كأصول الشجرة وأغصانها، والبيان بمنزلة أوراقها، وعلم البديع بمنزلة زهرها. وهو كالنقش في البيت، والزينة في لباس الإنسان؛ لأنه نوعٌ من التحسين، وأول من صنف فيه: عبدالله بن المعتز (٢٧٤هـ). ومنه معنوي، ومنه لفظي:

فمن المحسنات اللفظية: **الجناس**، وهو أنواع؛ لكن المشهور منه نوعان:

أحدهما: **التامُّ**. كما في الآية؛ فإن الحروف في كلمة «ساعة» متفقة، ولكن المعنى مختلف، ولم يرد في القرآن من هذا النوع غيرُ هذه الآية، فيما أعلم.

وورد في الشعر كثيرًا. ومنه قول أبي نواس:

عباسُ عبّاسٌ إذا احتدم الوغى
والفضلُ فضلٌ والربيعُ ربيعُ

وكقولي:

اللّهَ اللّهَ يا ظبيَ الفَلا أفَلا
تضيء مجلسنَا إن نجمنا أفَلا[1]

والثاني: **الجناس الناقص**. وهو كثير؛ كما في «يحسنون» و«يحسبون» في الآية، وكذلك «تقهر» و«تنهر»، ونحو: «إنَّ بلالاً يؤذن بليل»، وكقوله

(١) أفَل، من الأفول، بمعنى: غاب، والألف فيه للإرسال.

سبحانه: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾.

ومنه: **الاقتباس**. كما في البيت المذكور؛ فإنه مقتبَس من قوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾، وقول الحريري: فلم يكنْ إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب، حتى أنشد فأغرب.

وقول ابن حجر العسقلاني:

خاض العواذلُ في حديثِ مدامعي
لَمّا جرى كالبحر سرعة سيرِه
فحبستُه لأصون سرَّ هَواكمُ
حتى يخوضوا في حديثٍ غيرِهِ

وقولي:

هذا الذي يفتنكم
بشعره ونثره
يريد أن يخرِجكمْ
من أرضكم بسحرِه[1]

- ومنه **السجع. وهو: توافُق الفاصلتين في الحرف الأخير في النثر؛ كقوله ﷺ: «أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[2].**

(١) وقد اقتبس هذه الآية والتي قبلها غير واحد من الشعراء.

(٢) ومن حسن الاتفاق والانسجام أن راويه من الصحابة عبدالله بن سلام.

- ومنه القلب. كقول الشاعر:

مودّته تدومُ لكلّ هولٍ
وهل كلٌّ مودّته تدومُ

وفي القرآن: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾، و﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾.

- ومنه: لزومُ ما لا يلزمُ. وهو: أن يجيءَ قبل آخر حرفِ الرويّ من الشعر أو الفاصلة في السجع بما لا يلزمه، كلزوميّات أبي العلاء

وضابط الحُسْنِ في ذلك وفي جميع ألوان البديع: أن تكون الألفاظ تابعةً للمعاني. ومَن نَصر الألفاظ على المعاني فهو ظالم للبيان(١).

الإيضاح:

من المحسّنات اللفظية: **السّجع**. وهو في القرآن كثيرٌ. وأما أسجاع الناس فكثير منها متكلَّفٌ، والتكلُّف منافر للطبع البلاغيّ.

وأما القلب، ويقال له: المستوي أيضًا؛ فهو: أن يقرأ الكلام من آخره كما يقرأ من أوّله. والبيت المذكور في المتن لا أظن أن أحدًا يتهيّأ له مثله سهولةً وسلالة. ويُمثّل له أيضًا بقوله سبحانه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾، ولا يستقيم الاستشهاد به إلا مع غير الواو. وكقول بعضهم:

أرانـا الإلـهُ هـلالاً أنـارا

وأما لزوم ما لا يلزم: فكقول أبي العلاء المعرّي في ديوانه المسمّى «اللزوميّات»:

---

(١) لم أرِدْ بهذا أنّ المعنى هو الأهم في البيان، فالبلاغة كلّها قائمة على اللفظ موضعًا وقوة وجمالاً، فالمعاني كما قيل مطروحة على قارعة الطريق، وإنما المعيب هو مراعاة اللفظ على حساب المعنى.

لا تــطــلــبــنَّ بــآلــةٍ لــك حــاجــةً
قــلــمُ الــبــلــيــغ بــغــيــر جــدٍّ مــغــزلُ
ســكــن الــســمــاكــان[1] الــســمــاء كــلاهــمــا
هــذا لــه رمــح وهــذا أعــزلُ

فلو قال: وهذا أوّل، لصحّ، ولم يكن فيه عيب، ولكنه التزم بموافقة الحرف الآخر والذي قبله. وفي القرآن: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾، وهو مثال للسّجع أيضاً.

ثانيًا: المحسنات المعنويّة:

- **الطباق، أو المطابقة؛ كقوله سبحانه:** ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾، **وقوله تعالى:** ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، **وقوله:** ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾

- **المقابلة؛ كقوله تعالى:** ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾، **وكقول الشاعر:**

مـا أحـسـن الـديـن والـدنـيـا إذا اجـتـمـعـا
وأقـبـح الـكـفـرَ والإفـلاسَ بـالـرَّجـلِ

- **المشاكلة؛ كقول النبيّ ﷺ: «إنّ اللّهَ لا يملُّ حتى تملُّوا»، وكقول الشاعر:**

قـالـوا اقـتـرح شـيـئًـا نُـجِـدْ لـك طـبـخَـهُ
قـلـتُ: اطـبـخـوا لـي جُـبّـةً وقـمـيـصـا

- **والعكسُ؛ نحو: «عاداتُ الساداتِ ساداتُ العادات».**

(١) نجمان في السماء؛ الأوّل: الأعزل، والآخر: الرقيب، ويسمى أيضًا الرامح.

الإيضاح:

المحسنات المعنوية من صميم البلاغة، وهي أعلى وأغلى من محسنات اللفظ. ومنها:

الطباق؛ وأمثلته واضحة. وكذلك: **المقابلة**. غير أن المقابلة يُشترط فيها التقابلُ بين لفظين ولفظين فأكثر، كما في الآية، قوبل الضحك بالبكاء، والقليل بالكثير. والطباق بين لفظين فقط.

والمشاكلة: ذكر الشيء بغير لفظه لوقوعه في صحبته؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، والبيت المذكور هو أوضح ما يستشهد به في هذا الباب، فإن الجبة والقميص لا يُطبخان، بل يُخاطان ويُنسجان، ولكن الشاعر قدّر في ذهنه أنهم قالوا: اقترحْ شيئًا نجد لك صُنعه، فقال لهم: اطبخوا. . . أي: اصنعوا. وإنما قال: «اطبخوا» مشاكلةً للفظهم.

وكذلك الحديث في المَلَل، في قوله: «**لا يملّ**»، فإننا ندرك ببديهتنا أن المراد الترك والكف عن الجزاء، وهو المتبادر لمن يتذوّق العربية، ولبعض العلماء توجيه آخر يخرجه من المشاكلة، وهو إجراء اللفظ على ظاهر معناه، فيقول: هو ملل يليق بالله لا يشبه ملَل المخلوق.

ومنه العكس، كما في المثال، وهو شبيه بالمحسنات اللفظية.

ـ ومنه التورية. وهي: أن يُطلق لفظ له معنيان: قريبٌ، وبعيد. ويكون المرادُ هو البعيدَ؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾؛ يحتمل أنْ يكون المرادُ جمع «يدٍ» وهو المعنى القريبُ؛ بدليل «بنيناها» ويحتمل المعنى البعيد؛ أي: بقوة، وهو المراد.

ـ والاستخدامُ؛ كقول الشاعر:

إذا نـــزل الـــســـمـــاءُ بـــأرض قـــوم
رعـــيـــنـــاه وإنْ كـــانـــوا غـــضـــابـــا

المراد بالسماء: المطرُ، والزرع.

وقول الآخر:

ولـلـغـزالـة شـيء مـن تـلـفّـتـه
ونـورُهـا مـن ضِـيـا خـدِّيـه مـكـتَـسـبُ

الغزالة: الحيوان المعروف، والشمس.

الإيضاح:

التورية: من أدق المحسنات المعنوية وأرقّها، ومنهم من أنكر وقوعها في القرآن، ولا دليل لمن أنكر ذلك، فالقرآن جارٍ على الأسلوب العربي، والأمثلة فيه كثيرة؛ ومن ذلك: الآية السابقة، وقول الله تعالى إخبارًا عن إخوة يوسف حين قالوا لأبيهم لما أخبرهم أنه يجد ريح يوسف: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾، يحتمل: أنهم أرادوا بالضلال النسيان. والسياق يشهد لذلك. ويحتمل: أنهم أرادوا بالضلالة الخطأ والغواية في تفضيل يوسف عليهم وحبه الشديد له، ويشهد لذلك ما جاء في أول السورة من قولهم: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ وهو المعنى البعيد[1].

وكقول الشاعر:

أيـهـا الـمـعـرضُ عـنـي
حَـسْـبـك الله تـعـالـى

---

(١) ومنه فيما يظهر لي ـ والله أعلم ـ قوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾، ظاهر السياق يدل على أن ذلك يوم القيامة حين تبدّل الأرض غير الأرض، ولكن معاني الألفاظ والتركيب تشهد للحقيقة التي تقول بدوران الأرض.. ومن القرآن ما لا يفسره إلا العصر.

كلمة (تعالى) تحتمل أن تكون تنزيهًا لله، وتحتمل أن تكون طلبًا للمحبوب بأن يأتي، وهو المعنى البعيد[1].

ومن التورية «التوجيه» وهو أن يوجه المتكلم بعض كلامه إلى أسماء ملائمة، كأسماء أعلام، أو قواعد، أو غيرها.

كقول بعض الأدباء قد نزل به صاحب له وقال له حين رأى في منزله نملاً:

مـا لـي أرى مـنـزلَ الـمـولـى الأديـب بـه
نـمـلٌ تـجـمّـعَ فـي أرجـائـه زمَـرا

فأجابه:

لا تـعـجـبـنَّ - إذن - مـن نـمـل مـنـزلـنـا
فـالـنـمـل عـادتـهـا أن تـتـبَـعَ الـشُّـعـرا

وكقولي:

ويـا مـالـكـيْ فـاجـعـل رسـولـك شـافـعـيْ
فـإنـي حـنـيـفـي عـلـى مـلّـة الـمـلاَ

وأما **الاستخدام** - وهو قريب من التورية -؛ فهو: أن يأتيَ المتكلّمُ بلفظٍ مشتركٍ، له معنيان أو أكثر، ثم يأتي بما يدلّ على كل معنى؛ كما في البيتين، وكقولي:

وأبـغـض الـجُـبـنَ فـي نـفـسـي وآكـلُـه
أكْـلَ الـمـحـبُ لـه فـاسـتـعـمـلِ الـنّـظـرا

المراد: الجبن المطعوم، وضد الشجاعة.

---

(١) وتكون الألف على هذا الوجه في كلمة «تعالى» للإطلاق.

وقولي:

وأركـبُ الـعـيـر، فـي عـيـرٍ، وأربـطـه
فـيـه، ومـنـه، وأخـشـاه إذا نـظـرا

فهذا البيت جمع خمسة معان للعَيْر «الحمار، وجبل، والوتد، وكل ناتئٍ بين شيئين، والسيد» ولا أعرف له نظيرًا، لأن البلاغيين مقتصرون على ضمير أو ضميرين.

- ومنه **الجمع**؛ نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وكقول الراجز:

إن الـشـبـابَ والـفـراغ والـجِـدَهْ
مـفـسـدة لـلـمـرء أيُّ مـفـسـدهْ

جمع بين أشياء في حكمٍ واحدٍ.

- **والتفريق**. وهو: أن يفرّق بين شيئين متحدَين؛ كقول الشاعر:

مـا نـوالُ الـغـمـامِ وقـتَ ربـيـعٍ
كـنـوال الأمـيـر وقـت سَـخـاءِ
فـنـوال الأمـيـر بَـدرةُ عـيـنٍ[1]
ونـوالُ الـغـمـام قـطـرةُ مـاءِ

- ومنه: **توكيدُ المدح بما يشبه الذمّ**؛ كقول النابغة:

(١) البَدرَة: كيس فيه دنانير كثيرة.

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيوفَهم
بهنّ فُلولٌ[1] من قراع الكتائبِ

- ومنه التجريد؛ كقولك: لي منك صديقٌ حميم.

الإيضاح:

الجمع؛ هو: الجمع بين شيئين فصاعدًا في شيءٍ واحدٍ؛ كقوله سبحانه: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أصله: المال زينة، والبنون زينة. وكذلك ما في بيت أبي العتاهية؛ لأن كُلًّا من الشباب والفراغ والجِدَة مفسدَةٌ.

والتفريق: أنْ تُوقِع تبايُنًا بين اثنين من نوعٍ؛ كما في البيتين - وهما للوطواط[2] -؛ فإنه ذكر نوعين من النوال - وهو العَطاء -: نوال الأمير، ونوال الغمام. ثم فرّق بينهما في المعنى. وكقولك: حِفْظُ الشيخِ ليس كحفظ الغلام، فحفظ الصغير كالنقش في الحجر، وحفظ الكبير كالنقش في الماء.

ومنه: **توكيد المدح بما يشبه الذم**، كما في بيت النابغة المذكور؛ فإنه نفى أن يكون فيهم عيبٌ، ثم أتى بـ(إلاّ). ومعلومٌ أنّ ما بعدها يخالف ما قبلها، فالمستمِعُ ينتظر أن يذكُر عيبًا، ولكنّه خالف ظنه وزاد النّفي توكيدًا، فأثبتَ أنّ في سيوفهم آثارًا من الضرب وقتال الأعداء. ومن أمثلته في القرآن: قوله سبحانه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾.

وأما **التجريد**؛ فهو: أن تنتزع أمرًا من أمرٍ تخلعُ عليه صفته انتزاعًا متخيّلًا. ومنه في القرآن: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾.

---

(١) كسور في حدّها.

(٢) محمد بن محمد، المعروف بالرشيد، الوطواط، كان من الفائقين في الشعر والنثر (ت بخوارزم ٥٧٣هـ).

وكقولك: لي من فلان صديق حميم، وذلك أن العبرة بصفات المرء وما جبل عليه من خلال حميدة، وما الجسم إلا صورة تتضمن ذلك الجوهر، ألم تروا إلى قول زهير:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده
فلم تبقَ إلا صورةُ اللحم والدَّمِ

ولهذا قالوا: إنما تأنس الروح بالروح، بدليل أن المحبّ إذا مات محبوبه لم يطق بقاء جسده، وسارع بمواراته ودفنه.

ـ ومنه: التلميح؛ وهو: الإشارة إلى قصّةٍ مشهورةٍ، أو مسألةٍ علمية، أو شعرٍ مشهورٍ؛ كقول أبي تمام:

فوالله ما أدري أأحلامُ نائم
ألمّت بنا أم كان في الرَّكب يوشعُ

ـ ومنه: حسن التعليل؛ وهو: أنْ تدّعِي لأمرٍ علّةً تناسبه باعتبارٍ لطيفٍ؛ كقول الشاعر:

ما كلفة البدر المنير قديمةً
ولكنها في وجهه أثَرُ اللَّطْمِ

ـ ومنه: اللّفّ والنّشر؛ كقوله سبحانه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

ـ ومنه: حُسْنُ الختام. وكقول الشاعر:

بقيتَ بقاء الدهر يا كهف أهله
وهذا دعاءٌ للبريَّة شامِلُ

الإيضاح:

ومنه: **التلميح**: الإشارةُ بشعرٍ أو نثرٍ إلى قصةٍ، أو مَثَلٍ، أو شِعْرٍ. كما في البيتين؛ وهي لأبي تمام، أشار إلى القصة الشائعة في أخبار بني إسرائيل: أن يوشع فتى موسى استوقف الشمس قبل غروبها وهو يقاتل أحد الجبّارين.

ومن طريف ما اشتمل عليه علم البديع: **حسن التعليل**؛ كما في قول أبي الطيب:

لـم يـحـكِ نـائـلَـكَ الـسـحـابُ وإنـمـا
حُـمَّـتْ بـه فـصـبـيـبُـهـا الـرُّحـضـاءُ

فقد أنكر الشاعر - هاهنا - أن يكون السحاب الممطر قد أشبه الممدوح في كرمه وعطائه، وأتى بعلّةٍ في غاية الطرافة؛ وهي: أنّ السّحاب أخذتْه الرحضاء (الحمّى) من شدة الغيرة، فتصبّبَ منه الماءُ من شدة حرارة الحمّى.

وكما في البيتِ المُمَثَّلِ به؛ فقد ادّعى أبو العلاء أن السوادَ الذي في البدر لم يكن موجودًا من قبلُ، ولكنّه حدث بعد موت الإنسان الذي رثاه؛ من جرّاء لطْمِ البدر لوجهه ندبًا ونياحةً على فراقه. وهذا الأمرُ قائم على نفْي الحقائق، والكذب؛ ولولا الشعرُ لكان قبيحًا مسترذَلاً. ومنه - لكنّه أخفُّ وطأةً من الذي قبله، وأقلُّ كَذِبًا -:

صـبَّـحـتُـه عـنـد الـمـسـاءِ فـقـال لـي:
مـاذا الـكـلامُ وظـنّ ذاك مُـزاحَـا
فـأجـبـتـه: إشـراقُ وجـهـك غـرَّنـي
حـتـى تـوهَّـمـت الـمـسـاءَ صـبَـاحَـا

وأما اللف والنشر؛ فهو في الآية واضح، فقد ذكر الليل والنهار ثم

ذُكر بعدهما أمران؛ وهما: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ﴾، ورُدَّ الأول للأول، والثاني للثاني.

الأصل في الليل أن يكون للسكون، والنهار لطلب المعاش، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾.

ومنه: **حسن الختام**: أن يكون الكلامُ عذبًا يجد له السامع أو القارئ حلاوةً تهتزّ لها نفسُه، وتقول: هل من مزيد؟! فإنْ دلّ على ما يشعر بالانتهاء، فهو براعة الاختتام. وبراعةُ المقطع؛ وخواتيم سور القرآن في أعلى درجات الحُسْن؛ ومن ذلك الصلاة على النبيّ ﷺ[1].

هذا ما يسره الله ـ تعالى ذِكْره ـ من تصنيف هذا السِّفْر اللطيف.. وإنني زعيمٌ بأدبٍ راق، وذائقة فائقة، لمن أقبل على هذا العلم بهمّة وعشق لدراسة هذا الكتاب أو غيره من الكتب الميسّرة، بعد تعلمه قوانين النحو والصرف، واستعان على ذلك بواحد من حذّاق البيان والأدب، يفهمه ما عسُر عليه فهمه، ويحبب إليه فنونه وأساليبه التي تعلمه الغوص في بحار الإعجاز، وترشده إلى التقاط جواهر الكَلِم، وتعلمه الكتابة والحكمة والبيان.

وكان قد حبب إلينا البلاغة وزيّنها في قلوبنا بفصاحتهم وذوقهم وبيانهم صفوة فاضلة من أساتذة الأزهر وغيره، كانوا يدرِّسون علوم اللغة في المراحل الأولى من دراستنا بدار الحديث المكية التابعة للجامعة الإسلامية، بالمدينة المنورة، لم نجد بعدهم مثلهم في جميع المراحل، كانوا ـ كما كنّا

(١) وبقي في علم البديع الواسع الذي يتسع في كل عصر، أنواع كثيرة مستوفاة في المطولات، وفي القصائد البديعية، كميمية صفيّ الدين الحلّي، وابن حجة، والسيوطي، ومن ذلك المبالغة بأنواعها الثلاثة: (التبليغ، والإغراق، والغلو) والتوجيه، كقولك عن أعور: ليت عينيه سواء، ومنه الأسلوب الحكيم، وهو تلقي المخاطب بغير ما يترقب؛ كقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾، ومنه: تجاهل العارف، وهو سؤال المتكلم عما يعلمه لغرض التوبيخ أو التعجب؛ كقوله سبحانه: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥﴾.

نراهم أيامئذٍ - في البيان سَحرة، وفي الشعر مهرة، وفي حسن التربية بررَة، فتعلّمنا منهم الخطابة، وصنعة الشعر والكتابة، هكذا أصوِّر حالهم الآن، نقلاً من تصوري لهم يومَ ذاك، وأنا صبيّ حزوِّر، وكان من حكمتهم في سياسة التعليم الثناء على المتعلّم، والصبر عليه، وتوسيع دائرة التنافس، وكان فيهم من يعمد إلى ضرب الأمثال، وإيراد شيء من طريف الأخبار، وجيد الأشعار، مخافة السآمة علينا، فاحتدمت الخواطر، وحميت الأفكار، ونمت الملكات، وتفتقت المواهب، فكان فينا الشاعر والموهوب الذي يقول - وهو إذ ذاك صبي لم يجاوز الرابعة عشرة -:

عبدَ العزيز أخا القراء بُشراكَ
قد اختبرنا ونحنُ اليوم ننعاكَ

لم يبق في الدار من نُصغي لمنطقه
لا للحديث وللقرآن إلاّكَ

وكان فينا الأديب الكاتب الذي سئل عنه أحد أساتذته فقال: هذا الفتى أديب بطبعه، وفينا الخطيب الذي كان يعمد إلى اختيار الألفاظ العذبة، والجمل الرائقة في كلامه وخطبه، وقال مرَّة وهو يلقي كلمته في محفل كبير، لو بقيت أتكلم في هذا الموضوع حتى مطلع الفجر ما وفّيت، ولكن المقام مقام إيجاز.

وفينا من كان يقال له: الشوكاني الصغير، ومن كان يحمل فقهًا محفوظًا، وينهض بمتون يقولها من طرف لسانه، ومنّا السابقون السابقون في حفظ القرآن وتجويده، التالون له بصوت حسن، وبرع في أولئك الطلاب نفر في الخطّ الجميل والإبداع في الرَّسم... والسبب في ذلك كله هو ما يسَّره الله لأولئك التلاميذ من شيوخ كبار، مهروا في العلم والتعليم، فأوقدوا في قلوبهم نار الغيرة العلمية، وأذكوا روح المنافسة الشريفة في أنفسهم، وقد غلب هؤلاء في طريقتهم المثلى فريقًا آخر، كان لا همَّ له إلا حشو أذهان التلاميذ، بأي طريقة، وعلى أي وجه، وطريقهم مع هذا محفوفةٌ

بالتهديد، والوعيد الشديد، والزمجرة والعقاب الصارم، ولو ترى أحدهم وهو يهدر رافعًا صوته وسوطه على تلميذ دخل بعده، وكان هذا الأستاذ وآخرون لا يرون جواز دخول الطالب فصلَ الدراسة متأخرًا بعد دخول أستاذه، ثم ألقى علينا ذلك الأستاذ محاضرة في الأدب والانضباط واحترام الأستاذ، ولم يك ينسى أحد منهم أن يذكرنا بضرورة الانتهاء من المقرّر، فأفهمنا من حيث يشعر أو لا يشعُر، وفهمنا من حيث لا نشعر، أن المطلوب الأعظم، والغاية الكبرى، هو الانتهاء من المقرر، وتربّى من تربّى على هذا، لا سيما من كان ضعيف الهمّة، مهزول العزيمة، خامل الذهن، ومثل هؤلاء يضعف استعدادهم، وتضيق أفهامهم، وتنتكس فطرهم... أقول هذا لأنبّه إلى أن المراحل الأولى من عمر الطالب ودراسته هي أهم من كل دراسة بعدها، فتلك المرحلة هي مرحلة التأسيس، وموسم الغَرْس، وزمن التخيُّل الأقوى، والاستعداد المرِن، ونماء الملكات، والتربية على حبّ الحق وصفاء المشرب.

ولطريقة التعليم والتعلم والخلل فيهما كتابٌ أجمع فيه خاطرات وآراء في شأن التعليم، وإصلاح المناهج، وإرشاد المتعلمين، وتيسير العلوم الشرعية والعربيّة.

والقصد أن تعلّق النفس بما تتعلمه، ورغبتها فيه هي الزناد الذي تقدح بها الذهن وتوقده، والمعلِّم هو الذي يدني ذلك ويقصيه، كلّ على حسبه، والبلاغة علم يمزج بين الفكر والقلب والروح والوجدان، فمن لم يقدّمه بإمتاع وذوق، فهو في تَنُوفةٍ نائيةٍ عن رياض المعاني والبيان، وهو يهذي في وادي السِّباع، والبلاغة غاضبة في الوادي المقدَّس.

المحتوى